سورة مريم

هي مكية إلا آيتي ٥٨ ، ٧١ فمدنيتان ، وعدد آيها ثمان وتسعون .

ومناسبتها لسورة الكهف اشتمالها على نحو ما اشتملت عليه من أعاجيب القصص كقصة ولادة يحيى ، وقصة ولادة عيسى عليهما السلام .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١) .

شرح المفردات

زكريا (يمد ويقصر) من ولد سليمان بن داود عليهم السلام وكان نجارا ، نادى ربه : أي دعاه ، خفيا : أي مستورا عن الناس لم يسمعه أحد منهم ،

وهن العظم : ضعف ورق من الكبر: إذ قد بلغ خمسا وسبعين سنة أوثمانين، واشتعل الرأس شيبا : أى صار الشيب كالنار والشعر كأنه الحطب ، ولقوتها وشدتها أحرقت الرأس نفسه ، شقيا: يقال شقى بكذا : أى تعب فيه ولم يحصل مقصوده منه والمراد أنه خائب غير مستجاب الدعوة ، الموالى : هم عصبة الرجل ، من ورائى: أى من بعدى؛ ويقال رجل عاقر وامرأة عاقر إذا كانا عقيمين، وليا : أى ولدا من صلبى ، ويعقوب: هو يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم وكان متزوجا أخت مريم بنت عمران من ولد سليمان عليه السلام ، رضيا : أى مرضيا عندك قولا وفعلا ، سميا : أى شريكا له فى الاسم؛ فلم يسم أحد بهذا الاسم قبله ، وهذا دليل على أن الأسماء السُّنُع ـ الشريفة ـ جديرة بالأثرة وإياها كانت العرب تنتحى فى التسمية كما قال قائلهم فى المدح :

سُنْع الأسامى مُسْبلى أزر حمر تمس الأرض بالهُدْب

أنَّى : أى كيف ، عتيا من عتا يعتو : أى يبست مفاصله وعظامه ، شيئا : أى موجودا ، آية : أى علامة ، سويا : أى سوىّ الخلق سليم الجوارح ليس به بكم ولا خرس ، المحراب المُصلَّى ، أوحى : أى أومأ وأشار ، سبّحوا : أى صلوا ، بكرة وعشيا ، أى صلاة الفجر وصلاة العصر .

المعنى الجملى

روى محمد بن إسحاق فى السيرة من حديث أم سلمة ، وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود فى قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة ـ أن جعفر بن أبى طالب قرأ صدر هذه السورة على النجاشى وأصحابه .

الإيضاح

(كٓهيعٓصٓ) تقدم الكلام فى المراد من أوائل السور ، وأن المختار أن المقصود بها التنبيه كحروف التنبيه التى تقع أول الكلام نحو ألا و يا وغيرها ، وتقرأ بأسمائها فيقال (كاف . ها . يا . عين . صاد) .

(ذكر رحمة ربك عبده زكريا. إذ نادى ربه نداء خفيا) أى مما نقصّ عليك ذكر رحمة ربك عبده زكريا حين دعا ربه دعاء خفيا مستورا عن أعين الناس.

وإنما أخفى دعاءه لأنه أدل على الإخلاص وأبعد من الرياء وأقرب إلى الخلاص من لائمة الناس على طلب الولد وقت الكبر والشيخوخة.

وقصارى ذلك — إن فى هذه السورة ذكر الرحمة التى رحم الله بها عبده زكريا حين أسرّ بدعائه إليه.

ثم فصل كيفية دعائه بقوله:

(قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا. وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا) أورد زكريا عليه السلام قبل سؤاله أمورا ثلاثة، كل منها يستحق الرحمة والشفقة:

(١) ضعفه ظاهرا وباطنا، وأثر الأول قد ظهر فى العظام التى هى حاملة سائر الأعضاء، ومتى وصل إليها الضعف كان ضعف ماعداها أولى وأجدر، وأثر الثانى واضح باستيلاء الشيب على الرأس واضطرامه فى السواد كما قال ابن دريد:

إما ترىْ رأسى حاكى لونه طُرّة صبح تحت أذيال الدجى
واشتعل المبيضّ فى مسودّه مثل اشتعال النار فى جمر الغضا

(٢) إنه مارُدّ دعاؤه ولا خاب استعطافه حينا من الدهر، بل كان كلما دعا استجيب له، وهو فى هذه الحال أجدر بالإجابة لضعفه وشيخوخته، وفى هذا إشارة إلى لطف الله به وعظيم فضله عليه مدى حياته.

وقد روى التاريخ أن معن بن زائدة أتاه سائل فقال من أنت؟ قال أنا الذى أحسنتَ إليه حين كذا، قال مرحبا بمن توسل بنا إلينا وقضى حاجته.

(٣) إن فى إجابة الطلب منفعة دينية، إذ أنه خاف أن الموالى أى الورثة الذين يخلفونه فى إقامة الشعائر الدينية — لايؤدون مايجب عليهم نحو الدين من نشره وتبليغه للناس وعبادة الله كما أمر، والذبّ عنه إذا جد الجد ووجب الدفاع عنه،

فقد أثر عنهم أنهم كانوا من شرار بنى إسرائيل فخافهم ألا يحسنوا خلافته فى أمته لا فى الدين ولا فى المال ولا فى السياسة التى تتبع فى إدارة شؤونها .

وقد عرف زكريا عليه السلام ببعض الأمارات أن عصبته وهم إخوته و بنو عمه ربما استمروا على عادتهم فى الشر والفساد فخافهم على الدين أن يغيروه ، وألا يحسنوا الخلافة على أمته ، فطلب عقبا من صلبه يقتدى به فى إحيائه ، وينهج نهجه فيه فقال :

(فهب لى من لدنك وليا. يرثنى و يرث من آل يعقوب[1] واجعله رب رضيا) أى أعطنى من واسع فضلك وعظيم جودك وعطائك لا بطريق الأسباب العادية ولدا من صلبى ، يرث الحبورة منى و يرث من بنى ماثان ملكهم (قال الكلبى كان بنو ماثان رءوس بنى إسرائيل وملوكهم ، وكان زكريا رئيس الأحبار يومئذ) و يكون برا تقيا مرضيا عندك وعند خلقك ، تحبه و يحبونه لدينه وخلقه ومحاسن شيمه .

ونحو الآية قوله فى سورة آل عمران حكاية عنه «قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً » وقوله فى سورة الأنبياء « وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ » .

ثم أخبر سبحانه أنه أجاب دعاءه وتولى تسمية الولد بنفسه فقال :

(يازكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا) أى فاستجاب دعاءه وقال : يازكريا إنا نبشرك بهبتنا لك غلاما اسمه يحيى (معرّب يوحنا ، ففى إنجيل متى أنه يدعى يوحنا المعمدانى لأنه كان يعمد الناس فى زمانه) لم يسم أحد من قبله بمثل اسمه .

ثم ذكر جواب زكريا عند هذه البشرى مظهرا التعجب مما سمع :

(قال ربّ أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا؟) أى ومن أى وجه يكون لى ذلك وامرأتى عاقر لا تحبل ، وقد ضعفتُ من الكبر

(١) هو يعقوب بن ماثان وأخوه عمران بن ماثان والد مريم .

عن مباضعة النساء ، أ بأن تقوّيني على ماضعفت عنه من ذلك ، وتجعل زوجي ولودا وأنت القادر على ما تشاء ، أم بأن أتزوج زوجا غير تلك العاقر ؟

وخلاصة ذلك — إنه يستثبت ربه الخبر عن الوجه الذى يكون من قبله الولد الذى بشره به ، لا إنكارا منه لذلك ، وكيف يكون منه الإنكار لذلك وهو المبتدئ مسألة ربه به بقوله : فهب لى من لدنك وليا .

وإجمال المعنى — إنه تعجب حين أجيب إلى ما سأل وبشر بالولد ، ففرح فرحا شديدا وسأل عن الوجه الذى يأتيه منه الولد ، مع أن امرأته عاقر لم تلد من أول عمرها ، والآن قد كبرت وهو قد كبر وعتا : أى يبس عظمه ونحل ولم يبق له قدرة على قربان النساء ، وكأنه يقول : إنى حين كنت شابا وكهلا لم أرزق الولد لاختلال أحد السببين وهو عقم المرأة ، أفحين اختل السببان أرزقه ؟

(قال كذلك) أى قال الله تعالى : الأمر كما قلت ، فسنهب لك الولد مع ما أنتما عليه من العقم والشيخوخة .

ثم علل هذا بقوله :

(قال ربك هو علىّ هين) أى قال ربك الذى عوّدك الإحسان : خلق ولد منكما على هذه الحال هين ، فإنى إذا أردت شيئا كان دون توقف على الأسباب العادية التى رسمتها للحمل والولادة .

ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل عنه فقال :

(وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا) أى وليس خلق الغلام الذى وعدتك أن أهبه لك مع كبر سنك وعقم زوجك بأعجب من خلق البشر جملة من العدم ، فإن خلق آدم ماهو إلا أنموذج لسائر أفراد الجنس مستتبع لجريان آثاره عليه ، فإبداعه عليه السلام على هذا النمط إبداع لجميع أفراد ذريته ، والقادر على خلق الذوات والصفات من العدم المحض يكون أجدر بالقدرة على تبديل الصفات بخلق الولد من الشيخ والشيخة .

وخلاصة ذلك — إن من قدر على خلق الذوات والصفات والآثار من العدم، أجْدِرْ به أن يكون قادرا على تبديل الصفات ، فيعيد إليه و إلى زوجه القوة وسائر الوسائل التى بها يمكن أن ينشأ منهما الولد كما قال « فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ » .

ثم أخبر سبحانه أن زكريا تاقت نفسه إلى سرعة وجود المبشر به ، ليطمئن قلبه بما وعد به كما قال إبراهيم من قبله « رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ، قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي » فقال حاكيا عنه .

(قال رب اجعل لى آية) أى قال رب اجعل لى علامة تدلنى على تحقق المسئول فى زمن معين ، إذ كانت البشارة غير مقيدة بوقت ، والحمل خفى فى مبدئه ولا سيما ممن انقطع حيضها لكبرها — إلى أنه أراد أن يطلعه على ذلك ليتلقى تلك النعمة الجليلة بالشكر حين حدوثها .

ثم بين أنه أجابه إلى ماطلب فقال :

(قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا) أى علامتك على وجود المبشر به وحصول الحمل ، ألا تقدر على تكليم الناس بكلامهم المعروف فى محاوراتهم ثلاث ليال وأنت صحيح سوىّ الخلق سليم الجوارح ليس بك علة ولا مرض .

وجاء فى سورة آل عمران « قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا » .

(فخرج على قومه من المحراب) أى فخرج غبّ إعلام الله له بهذه الآية على قومه من المحراب (وهو المسمى عند أهل الكتاب بالمذبح ؛ وهو مقصورة فى مقدم المعبد لها باب يصعد إليه بسلم ذى درج قليلة يكون من فيه محجوبا عمن فى المعبد) ممتقع اللون منطلق اللسان بذكر الله منحبسه عن كلام الناس (وقد كانوا ينتظرون أن يفتح لهم الباب إذ كان من عادتهم أن يصلوا معه صلاتى الغداة والعشى فى محرابه) فقالوا مالك يانبى الله ؟.

(فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا) أى فأومأ إليهم وأشار كما جاء فى الآية الأخرى « إِلَّا رَمْزًا » أى سبحوا الله ونزهوه عن الشريك والولد، وعن كل نقص طرفى النهار .

وقد كان أخبرهم بما بشر به قبل وجود الآية ، فلما تعذر عليه الكلام أشار إليهم بحصول ما بشر به من ذلك الأمر العجيب فى مجرى العادة فسرّوا به .

فلما ولد و بلغ سنا يؤمر فيه مثله قلنا :

يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥) .

شرح المفردات

الكتاب: هو التوراة ، والقوة: الجد والاجتهاد، والحكم والحكمة: الفقه فى الدين، وحنانا : أى عطفا على الناس ، وزكاة: أى طهارة من الذنوب والآثام ، تقيا: أى مطيعا لأمر ربه منتهيا عما نهى عنه، وبرا بوالديه : أى كثير البر والإحسان إليهما ، جبارا: أى متعاليا عن قبول الحق والإذعان له، عصيا: أى مخالفا أمر مولاه ، سلام: أى أمان من الله عليه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه دعاء زكريا ربه أن يهبه غلاما سريا ، وذكر أنه أجاب طلبه وجعل لذلك أمارة يعلم منها وقت الحمل به ـ ذكر هنا أنه بعد أن ظهر ذلك المولود إلى عالم الوجود وترعرع ونما ، أمره بالجد والعمل لطاعته ، وجعله طاهرا برّا بوالديه لا يعصى أوامر ربه ولا يتعالى عن قبول الحق .

الإيضاح

(يايحيى خذ الكتاب بقوة) أى خذ التوراة التى هى نعمة الله على بنى إسرائيل بجدّ واجتهاد وحرص على العمل بها .

ثم وصفه الله بصفات كلها مناهج للخير ووسائل للطاعة فقال :

(١) (وآتيناه الحكم صبيا) أى وأعطيناه الحكمة والفقه فى الدين والإقبال على الخير وهو صغير لم يتم سبع سنين ، روى أن الغلمان قالوا له يوما : هيّا بنا نلعب ، قال : ماللعب خلقنا ، اذهبوا بنا نصلى .

(٢) (وحنانا من لدنا) أى وجعلناه ذا حنان وشفقة على الناس وحسن نظرٍ فيما وليه من الحكم فيهم ، وقد وصف الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بمثل هذا فى قوله « فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ » وقوله « حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » .

(٣) (وزكاة) أى طهارة من الدنس و بعدا من اجتراح الذنوب والآثام .

(٤) (وكان تقيا) أى مطيعا لما به أمر وعنه نهى ، فلم يفعل معصية ولاهمّ بها.

(٥) (و برا بوالديه) أى كثير البر بهما والإحسان إليهما والحدَب عليهما بعيدا عن عقوقهما قولا وفعلا ، وقد جعل الله طاعة الوالدين فى المرتبة التى تلى مرتبة طاعته فقال : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً » .

(٦) (ولم يكن جبارا) أى لم يكن متكبرا على الناس ، بل كان لين الجانب متواضعا لهم ، وقد أمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بمثل هذا فى قوله : « وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » ووصفه بقوله : « وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ » ومن ثم لما تجبر إبليس وتمرد صار مبعدا من رحمة ربه .

(٧) (عصيا) أى مخالفا لما أمره ربه .

ثم ذكر سبحانه جزاءه على ماقدم من عمل صالح وأسلف من طاعة ربه فقال :

(وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا) أى وتحية من الله عليه أول ما يرى الدنيا ، وأول يوم يرى فيه أمر الآخرة ، وأول يوم يرى فيه الجنة والنار.

وإنما خص هذه المواضع الثلاثة ، لأن العبد أحوج ما يكون إلى رضا ربه فيها لضعفه وحاجته وقلة حيلته وافتقاره إلى رحمة ربه ورأفته به .

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١) .

شرح المفردات

انتبذت : أى اعتزلت وتنحت ، مكانا شرقيا : أى شرقى بيت المقدس ، حجابا : أى ساترا توارت به منهم ، روحنا : هو جبريل عليه السلام ، سويا : أى سوىّ الخلق كامل البنية ، أعوذ : أى أعتصم وألتجئ ، تقيا : أى مطيعا ، لأهب لك : أى لأكون سببا فى هبته ، غلاما : أى ولدا ذكرا ، زكيا : أى طاهرا من الأدناس والأرجاس ، أنّى : أى كيف يكون ذلك ؟ آية : أى علامة على قدرة خالقكم ، مقضيا : أى محتوما قد تعلق به قضاؤنا الأزلى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص زكريا عليه السلام وأنه أوجد منه فى حال كبره وعقم زوجه ولدا زكيا مباركا ـ أردف ذلك بذكر قصص مريم وأنه أنجب منها ولدا من غير أب ، وبين القصصين مناسبة ظاهرة ، ومن ثم ذكرهما مقترنين فى سورة آل عمران وهنا وفى الأنبياء ، وبدأ بقصة يحيى لأن خلق الولد من شخصين فانيين أقرب إلى مناهج العادات من خلق الولد بلا أب ، ثم ثنى بقصة عيسى لأنها أغرب من تلك .

ومن حسن طرق التعليم والتفهيم التدرج بالانتقال من الأقرب منالا إلى أصعب منه ، وهكذا صُعُدا .

الإيضاح

(واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا) أى واتل أيها الرسول فى كتاب الله الذى أنزله إليك بالحق ، قصص مريم بنة عمران حين اعتزلت من أهلها وانفردت عنهم إلى مكان شرقى بيت المقدس لتتخلى للعبادة .

وعن ابن عباس أنه قال : إنى لأعلم خلق الله لأى شىء اتخذ النصارى المشرق قبلة ، لقول الله عز وجل : « إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا » فاتخذوا ميلاد عيسى عليه السلام قبلة .

(فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا) أى فاتخذت من دون أهلها سترا يسترها عنهم وعن الناس ، فأرسلنا إليها جبريل عليه السلام ، فجاءها بصورة رجل معتدل الخلق ليعلمها بما يريد بها من الكرامة بولادة عيسى عليه السلام من غير أب ، إذ ربما يشتبه عليها الأمر فتقتل نفسها أسًى وغما ، وإنما مثل لها بهذا المثال لتأنس بكلامه وتتلقى منه ما يلقى إليها من كلماته ، ولأنه لو بدا لها على الصورة الملكية لنفرت منه ولم تستطع محاورته .

ثم حكى عنها سبحانه ما قالته حينئذ فقال :

(قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا) أى فلما رأته فزعت منه وقالت إنى أستجير بالرحمن منك أن تنال منى ماحرم الله عليك إن كنت ذا تقوى له ، تتقى محارمه وتجتنب معاصيه ، فمن يتق الله يجتنب ذلك .

وإجمال المعنى — إنه لما تبدى لها فى صورة البشر وهى فى مكان منفرد ، و بينها و بين قومها حجاب خافته وظنت أنه يريدها على نفسها فقالت : إنى أعوذ بالله منك إن كنت تخافه — وقد فعلت المشروع فى الدفع وهو أن يكون بالهوينى والأسهل فالأسهل .

وخلاصة ذلك — إن الاستعاذة لاتؤثر إلا فى التقىّ ، لا أن الله تعالى يخشى فى حال دون حال ، فهو كقوله : « وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » أى إن الإيمان يوجب ذلك .

فلما علم جبريل خوفها :

(قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا) أى فقال لها الملَك مجيبا لها ومزيلا لما حصل عندها من الخوف على نفسها : لست ممن تظنين ، ولا يقع منى ما تتوهمين من الشر ، ولكنى رسول ربك بعثنى إليك ، لأهب لك غلاما طاهرا مبرأ من العيوب ، وقد أضاف الهبة إلى نفسه من قِبَل أنها جرت على يده بأن نفخ فى جيبها بأمر الله .

ولما عجبت مريم مما سمعت :

(قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا) أى قالت لجبريل : من أى وجه يكون لى غلام ولست بذات زوج ولا يتصور منى الفجور ؟.

(قال كذلك قال ربك هو علىّ هين) أى قال الملك مجيبا لها عما سألت : إن الله قد قال : إنه سيوجد منك غلام و إن لم تكونى ذات بعل ، ولا تقترفين فاحشة فإنه تعالى على ما يشاء قدير ، ولا يمتنع عليه فعل ما يريده ، ولا يحتاج فى إنشائه إلى الموادّ والآلات .

ونحو الآية قوله فى سورة آل عمران : « كَذٰلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » .

(ولنجعله آية للناس) أى وفعلنا ذلك لنجعل خلقه برهانا على قدرتنا ، فقد خلقنا أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى ، وخلقنا عيسى من أنثى فحسب ، وخلقنا بقية الذرية من ذكر وأنثى ، وإلى الأولَيْن أشار القائل :

ألا رب مولود وليس له أب وذى ولد لم يَلْدَه أبوان

(ورحمة منا) أى ورحمة من الله لعباده ، إذ بعثه نبيا يدعو إلى عبادته وتوحيده.

(وكان أمرا مقضيا) أى قد قضاه الله فى سابق علمه ، ومضى به حكمه ، فلا يغير ولا يبدل : « مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » .

فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢٦) .

شرح المفردات

فانتبذت : أى فاعتزلت ، قصيا : أى بعيدا من أهلها وراء الجبل ، فأجاءها المخاض : أى فألجأها واضطرها؛ والمخاض: الطلق حين تحرك الولد للخروج من البطن والنسى (بفتح النون وكسرها) الشىء الحقير الذى من شأنه أن ينسى ولا يذكر ولا يتألم لفقده كالوتد والحبل ، والمنسى : مالا يخطر بالبال لتفاهته ، والسرىّ : السيد

الشريف ، والهز تحريك الشيء بعنف أو بدونه ، تساقط : أى تسقط ، ورطبا : أى بسرا ناضجا ، جنيا : أى صالحا للاجتناء ، فقولى : أى أشيرى إليهم . قال الفراء : العرب تسمى كل ما أفهم الإنسان شيئا ـ كلاما بأى طريق كان ، إلا إذا أكد بالمصدر فيكون حقيقة فى الكلام كقوله : « وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا » صوما : أى صمتا .

الإيضاح

(فحملته فانتبذت به مكانا قصيا) أى فلما قال لها جبريل ما قال . استسلمت لقضاء الله فنفخ جبريل فى جيب درعها (الفتحة التى من الأمام فى القميص) فدخلت النفخة فى جوفها فحملته قاله ابن عباس ، وقال غيره : نفخ فى كمها ، والقرآن قد أثبت النفخ فقال : « فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا » ولم يعين موضع النفخ فلا نجزم بشىء من ذلك إلا بالدليل القاطع ، وحينئذ اعتزلت بالذى حملت وهو عيسى عليه السلام مكانا قاصيا عن الناس .

والقرآن الكريم لم يعين مدة الحمل (ولا حاجة إليها فى العبرة) فنقول إنها كانت كما يكون غيرها من النساء إلا إذا ثبت غيره ، وكذلك لا حاجة إلى تعيين سنها حينئذ إذ لا يتعلق به كبير فائدة .

وإنما اتخذت المكان البعيد حياء من قومها وهى من سلائل بيت النبوة ، ولأنها استشعرت منهم اتهامها بالريبة فرأت أن لا تراهم وأن لا يرونها .

(فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا) أى فألجأها وجع الولادة وألم الطلق أن تستند إلى جذع النخلة للتشبث به لسهولة الولادة ، وتمنت أن لو كانت ماتت قبل هذا الوقت الذى لقيت فيه مالقيت ، حياء من الناس وخوفا من لائمتهم ، أو كانت شيئا لا يعتد به ولا يخطر ببال أحد من الناس .

(فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا) أى فناداها عيسى عليه السلام كما قال الحسن البصرى وسعيد بن جبير ، (وقد أنطقه الله حين وضعته تطييبا لقلبها ، و إزالة للوحشة عنها حتى تشاهد بادئ ذى بدء علوّ شأن ذلك المولود الذى بشرها به جبريل عليه السلام) ألا تحزنى فقد جعل ربك المحسن إليك تحتك غلاما رفيع الشأن سامى القدر ذا سخاء فى مروءة .

(وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا) أى أميلى إليك جذع النخلة واجذبيه بتحريكه ، يُسْقِط عليك رطبا جنيا تأكلين منه ماتشائين .

وتلك آية أخرى لها ؛ إذ روى أنها كانت نخلة يابسة لارأس لها ولا ثمر وكان الوقت شتاء ، فأنزل الله لها رزقا فجعل للنخلة رأسا وخوصا وجعل لها ثمرا رطبا — وهذه رواية يعوزها الدليل .

وفى هذا إيماء وتنبيه إلى أن من يقدر ان يثمر النخلة اليابسة فى الشتاء يقدر أن يجعلها تحمل من غير السنن العادية ، و إلى أن السعى فى الرزق مطلوب ولا ينافى التوكل ، ولله در القائل :

ألم تر أن الله أوحى لمريم وهزى إليك الجذع يساقط الرطب
ولو شاء أحنى الجذع من غير هزه إليها ولكن كل شىء له سبب

(فكلى واشربى وقرّى عينا) أى فكلى من ذلك الرطب واشربى من عصيره وطيبى نفسا وأبعدى عنك الأحزان ، فإن الله قدير أن ينزه ساحتك و يبعد عنك تخرصات المبطلين الذين يتقيدون بالسنن التى جعلها الله الطريق للولادة فى البشر ، و يرشدهم إلى الوقوف على سريرة أمرك حتى يثبتوا لك القداسة والطهر .

(فإما ترينّ من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا) أى فإن رأيت أحدا من بنى آدم يسألك عن أمرك وأمر ولدك وكيف ولدته ، فأشيرى إليهم — إنى أوجبت على نفسى لله صمتا ألاّ أكلم أحدا اليوم ، فإن كلامى يقبل الرد والجدل ، ولكن يتكلم عنى ذلك المولود الذى لايقبل كلامه الدفع

والرد، وإنى أنزه نفسى عن مجادلة السفهاء، ولا أكلم إلا الملائكة أو أناجى الخالق .

وليس الصمت عن الكلام من شريعة الإسلام ، فقد روى أن أبا بكر دخل على امرأة قد نذرت ألا تتكلم فقال إن الإسلام قد هدم هذا فتكلمى ، وروى ابن أبى حاتم عن ابن مسعود أنه جاءه رجلان فسلم أحدهما ولم يسلم الآخر ثم جلسا ، فقال القوم : ما لصاحبك لم يسلم ؟ قال إنه نذر صوما لا يكلم اليوم إنسيا ، فقال له ابن مسعود : بئس ماقلت ، إنما كانت تلك المرأة قالت ذلك ليكون عذرا لها إذا سئلت ، وكانوا ينكرون أن يكون ولد من غير زوج إلا زنا ـ فكلم وأمر بالمعروف وانه عن المنكر فإنه خير لك .

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَادُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) .

شرح المفردات

فريّا : أى عظيما خارقا للعادة؛ وهى الولادة بلا أب ، من فرى الجلد أى قطعه على وجه الإصلاح أو الإفساد، ومنه فى وصف عمر «فلم أر عبقريا يفرى فريّه» وفى المثل جاء يفرى الفرىّ ، وهارون هو أخو موسى عليه السلام ، وقيل هو رجل صالح من بنى إسرائيل ، والأخت على هذا بمعنى المشابهة ، وشبهوها به تهكما ، أو لما رأوا من

قبل من صلاحها ، والمهد : الموضع يهيأ للصبى ويوطأ والجمع مهود ، والكتاب : الإنجيل ، مباركا : نفاعا للناس ، أو ثابتا فى دين الله ، الجبار : المتعظم الذى لا يرى لأحد عليه حقا ، والشقى : العاصى لربه .

الإيضاح

(فأتت به قومها تحمله قالوا يامريم لقد جئت شيئا فريّا) أى إن مريم حين أمرت أن تصوم يومها ولا تكلم أحدا من البشر ، وأنها ستكفى أمرها ويقام بحجتها — سلمت أمرها إلى الله واستسلمت لقضائه ، فأخذت ولدها وأتت به قومها تحمله ، فلما رأوها كذلك أعظموا مارأوا واستنكروا وقالوا يامريم لقد جئت أمرا عظيما منكرا .

ثم زادوا تأكيدا فى توبيخها وتعييرها فقالوا :

(ياأخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا) أى يامن أنت من نسل هرون أخى موسى ، كما يقال للتميمى يا أخا تميم ، وللمضرى يا أخا مضر ، أو يامن أنت شبيهة بذلك الرجل المسمى بهذا الاسم الذى كنت تتأسَّيْن به فى العبادة والزهد — ما كان أبوك بالفاجر وما كانت أمك بالبغىّ ، فمن أين لك هذا الولد ؟.

أخرج أحمد ومسلم والترمذى والنسائى وعبد بن حميد وابن أبى شيبة وغيرهم عن المغيرة بن شعبة قال « بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل نجران فقالوا : أرأيت ما تقرءون « يَا أُخْتَ هَرُونَ » وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ، قال فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ألا أخبرتم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم » وهذا التفسير النبوى يغنى عن سائر ما روى عن السلف فى ذلك .

(فأشارت إليه) أى فأشارت إلى عيسى أن كلموه ، وإنما اكتفت بالإشارة

ولم تأمره بالنطق لأنها نذرت للرحمن صوما عن الكلام ، أو اقتصرت على ذلك للمبالغة فى إظهار الآية العظيمة ، وأن هذا المولود يفهم الإشارة ويقدر على العبارة .

(قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا) أى قالوا لها متهكمين بها ظانين أنها تزدرى بهم وتهزأ : كيف نكلم من هو صبى فى المهد ، ولم يعهد فى مثله وهو لم يدْرُج بعدُ من حجر أمه أن يكلم أحدا ؟ .

روى أن عيسى لما سمع كلامهم أقبل عليهم وترك الرضاع وأشار بيمينه ، ثم بدأ يتكلم فوصف نفسه بجملة صفات :

(١) (قال إنى عبد الله) أى إنى عبدا لله الذى له صفات الكمال لا أعبد غيره ، وفى هذا إيماء إلى أن من كان عبد الله لايتخذ إلها من دونه ، ولا يستعبده شيطان ولا هوى .

(٢) (آتانى الكتاب) أى سينزل علىّ الإنجيل .

(٣) (وجعلنى نبيا) أى وسيجعلنى نبيا ، وفى هذا براءة لأمه ، لأن الله لايصطفى لنبوته أولاد سفاح .

(٤) (وجعلنى مباركا أينما كنت) أى سيجعلنى نفاعا للناس هاديا لهم إلى سبيل الرشاد فى أىّ مكان كنت ، وقد جعل هذه الصفات كأنها حدثت له فعلا وهى لم تحصل بعدُ ، من قِبَل أنها لما كانت واقعة حتما نزلت منزلة ماقد حصل .

(٥) (وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا) أى وأمرنى بالصلاة ، إذ فى إقامتها و إدامتها على الوجه الذى سنه الدين ـ تطهير النفوس من الأرجاس ومنع لها عن ارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وأمرنى بالزكاة بإعطاء جزء من المال للبائس والمحتاج ، لما فى ذلك من تطهير المال ـ مادمت حيا فى الدنيا .

(٦) (وبرا بوالدتى) أى وجعلنى برا بوالدتى مطيعا لها محسنا ، وفى هذا رمز إلى نفى الريبة عنها ، إذ لو لم تكن كذلك لما أمر الرسول المعصوم بتعظيمها .

(٧) (ولم يجعلنى جبارا شقيا) أى ولم يجعلنى جبارا مستكبرا عن عبادته ، ولا شقيا بعقوق والدتى وعدم البر بها .

(٨) (والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا) أى والأمنة من الله على ، فلا يقدر أحد على ضرى فى هذه المواطن الثلاثة التى هى أشق ما تكون على العباد .

واعلم أن اليهود والنصارى ينكرون أن عيسى عليه السلام تكلم فى المهد ، واحتج النصارى على ذلك بأن هذا من الأحداث التى لو وجدت لتوافرت الدواعى على نقلها تواترا ، لأنه من المناقب السامية والفضائل التى لها الميزة العظمى بين الناس ، ولما لم يعرف ذلك لدينا مع تتبعنا لفضائله ، وشدة بحثنا عن الجليل والحقير من أحواله — علمنا أنه لم يوجد ، وأيضا فاليهود أظهروا عداوته حين ادعى النبوة ، فلو أنه تكلم إذ ذاك لكانت عداوتهم له أشد ، ولكان تحيلهم فى قتله أعظم ، ومن حيث لم يحصل شىء من هذا علمنا أنه لم يتكلم .

والمسلمون يقولون : كفى إثباتا لذلك نص القرآن القاطع — إلى أن العقل يرشد إليه ، إذ لولا كلامه الذى دلهم على براءة أمه من الزنا لما تركوا الحد عليها ، وربما كان الحاضرون حين كلامه عددا قليلا ؛ ومن ثم لم يشتهر بينهم ، وربما لم يحضر اليهود كلامه ولم يسمعوا به

ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ

فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٨) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ، وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠) .

شرح المفردات

قول الحق: أى قول الصدق الذى لاشبهة فيه، يمترون: أى يشكون و يتنازعون ، ما كان لله أن يتخذ من ولد : أى ماينبغى ولايصح أن يجعل له ولدا ، صراط مستقيم: أى طريق لايضل سالكه ، الأحزاب : فرق النصارى الثلاث ، مشهد : أى شهود وحضور ، يوم عظيم: هو يوم القيامة ، اليوم : أى فى الدنيا ، يوم الحسرة: هو يوم القيامة حين يندم الناس على مافرطوا فى جنب الله ، قضى الأمر: أى فرغ من الحساب .

الإيضاح

(ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون) أى ذلك الذى فصلت نبوّته وذكرت مناقبه وأوصافه هو عيسى بن مريم ، نقول ذلك قول الصدق الذى لاريب فيه ، لا كما يقول اليهود من أنه ساحر وحاشاه ، ولا كما تقول طائفة من النصارى إنه ابن الله ، ولا كما تزعم طائفة أخرى أنه هو الله ، و يخلعون عليه من صفات الألوهية ماهو منه براء .

ثم أكد مادل عليه سابق الكلام من كونه ابنا لمريم لا لغيرها بقوله :

(ما كان لله أن يتخذ من ولد) أى لايليق بحكمة الله وكمال ألوهيته أن يتخذ الولد ، لأنه لو أراده لخلقه بقول « كُنْ » فلا حمل ولا ولادة ، ولأن الولد إنما يرغب فيه ليكون حافظا لأبيه يعوله وهو حى ، وذكرا له بعد الموت ، والله تعالى لا يحتاج إلى شىء من ذلك ، فالعالم كله خاضع له ، لا حاجة له إلى ولد ينفعه ، وهو حى أبدا .

ولما كان اتخاذ الولد من النقائص أشار إلى تنزيهه تعالى عن ذلك فقال :

(سبحانه) أى تنزه ربنا عن كل نقص من اتخاذ الولد أو غيره .

ثم ذكر علة هذا التنزيه وبيان الوجه فيه فقال :

(إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون) أى إذا أراد شيئا فإنما يأمر به فيصير كما يشاء كما قال : « إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » ومن كان هذا شأنه فكيف يتوهم أن يكون له ولد ، لأن ذلك من أمارات النقص والاحتياج .

(وإن الله ربى وربكم فاعبدوه) أى ومما أمر به عيسى قومه وهو فى مهده أن أخبرهم بقوله — إن الله ربى وربكم ، وأمرهم بعبادته .

(هذا صراط مستقيم) أى هذا الذى أوصيتكم به وأخبرتكم أن الله أمرنى به هو الطريق المستقيم ، فمن سلكه نجا ، ومن اتبعه اهتدى ، لأنه دين الله الذى أمر به أنبياءه ، ومن خالفه ضل وغوى ، وسلك سبيل الردى .

ثم أشار إلى أنه مع وضوح الأمر فى شأن عيسى وأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه — اختلفوا فيه كما قال :

(فاختلف الأحزاب من بينهم) أى اختلف قوم عيسى فى شأنه فرقا ثلاثا . فقالت اليعقوبية : (نسبة إلى عالم منهم يسمى يعقوب) هو الله هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء ، وقالت النسطورية (نسبة إلى عالم يسمى نسطور) . كان ابن الله أظهره ما شاء ثم رفعه إليه . وقالت الملكانية (نسبة إلى الملك قسطنطين وكان فيلسوفا عالما) إنه كان عبدا لله مخلوقا . وهذا الرأى هو الذى نصره الملك ونصره غيره من شيعته .

ثم توعد من كذب على الله وافترى وزعم أن له ولدا فقال :

(فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) أى فعذاب شديد للكافرين من شهود ذلك اليوم وهو يوم القيامة ، لشدة بأسه وعذابه ، فالأيدى والأرجل والألسن

تشهد على أصحابها ، وقد أجل الله عقابهم إلى هـذا اليوم حلما منه وثقة بقدرته عليهم ، فهو لا يعجل عقوبة من عصاه كما جاء فى الصحيحين « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد) وفى الصحيحين أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا أحد أصبر على أذًى سمعه من الله – إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم و يعافيهم » .

ثم عجّب ربنا من قوة سمع الـكفار وحدّة أبصارهم يوم القيامة وقد كانوا على الضد من هذا فى الدنيا فقال :

(أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لـكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين) أى لئن كان هؤلاء الـكفار الذين جعلوا لله أندادا وزعموا أن له ولدا – عمياً فى الدنيا عن إبصار الحق والنظر إلى حجج الله التى أودعها فى الـكون دالة على وحدانيته وعظيم قدرته و بديع حكمته ، صمّا عن سماع آى كتبه وما دعتهم إليه الرسل مما ينفعهم فى دينهم ودنياهم و يهديهم إلى الصراط المستقيم – فما أسمعهم يوم قدومهم على ربهم فى الآخرة ، وما أبصرهم حينئذ ، حيث لا يجدى السماع والإبصار شيئا ، و يعَضون على أناملهم حسرة وأسفا ، و يتمنون على الله الأمانى ، فيودون الرجوع إلى الدنيا ليتداركوا مافاتهم من صالح العمل ، ولـكن هيهات هيهات فقد فات الأوان .

صاح هل ريت أو سمعت براع رد فى الضَّرع ماقرى فى الحلاب

ومن ثم لا يجاب لهم طلب ، بل يقال لكل أفاك أثيم « خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ . ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ . إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ » .

ثم أمر الله نبيه أن ينذر قومه والمشركين جميعا فقال :

(وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون) أى وأنذر الناس جميعا يوم يتحسر الظالمون على مافرطوا فى جنب الله حين فرغ من الحساب ، وذهب

أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار ، ونودى كل من الفريقين لاخروج من هنا بعد اليوم ، ولا موت بعد اليوم . روى الشيخان والترمذى عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يؤتى بالموت بهيئة كبش أملح (يخالط بياضه سواد) فينادى منادٍ يا أهل الجنة فيشرئبون و ينظرون ، فيقول هل تعرفون هذا ؟ فيقولون: نعم هذا الموت ، وكلهم قد رأوه ، ثم ينادى مناد يا أهل النار فيشرئبون و ينظرون ، فيقول هل تعرفون هذا ؟ فيقولون نعم : هذا الموت وكلهم قد رأوه ، فيذبح بين الجنة والنار ، ثم يقول : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، و يا أهل النار خلود فلا موت ، ثم قرأ « وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » .

وقوله إذ قضى الأمر أى إذ فرغ من الحكم لأهل النار بالخلود فيها ، ولأهل الجنة بمقام الأبد فيها بذبح الموت . وذبحه تصوير لأن كلا من الفريقين يفهم فهما لا لبس فيه أنه لاموت بعد ذلك .

وقوله : وهم فى غفلة أى عن ذلك اليوم ، وعن حسراته وأهواله ، وقوله : وهم لايؤمنون : أى وهم لايصدقون بالقيامة والبعث ومجازاة الله لهم على سيىء أعمالهم بما أخبر أنه مجازيهم به .

ثم سلى رسوله وتوعد المشركين فقال :

(إنا نحن نرث الأرض ومن عليها و إلينا يرجعون) أى لايحزنك أيها الرسول تكذيب المشركين لك فيما أتيتهم به من الحق ، فإن إلينا مرجعهم ومصيرهم ومصير الخلق أجمعين ، ونحن وارثو الأرض ومن عليها من الناس بعد فنائهم ، ثم نجازى كل نفس بما عملت حينئذ فنجازى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته ،لاظلم اليوم ، إن الله سريع الحساب .

قصص إبراهيم عليه السلام

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠) .

شرح المفردات

واذكر فى الكتاب : أى اتل فى هذه السورة ، صدّيقا : أى مبالغا فى الصدق لم يكذب قط ، صراطا سويا : أى طريقا مستقيما موصلا إلى نيل السعادة ، وليا : أى قرينا تليه ويليك فى العذاب ، أراغب أنت عن آلهتى : أى أكاره لها ، لأرجمنك : أى لأشتمنك باللسان أو لأرجمنك بالحجارة ، مليًّا : أى دهرا طويلا . قال مهلهل :

فتصدعت صُمُّ الجبال لموته ... وبكت عليه المُرْمِلات مَلِيا

حفيا : أى مبالغا فى برّى و إكرامى ؛ يقال حفى به إذا اعتنى بإكرامه ، شقيا : أى خائب المسعى ، لسان صدق : أى ثناء حسنا .

المعنى الجملى

اعلم أن المقصد من هذه السورة إثبات الوحدانية والنبوة والبعث ، والمنكرون للتوحيد فريقان : فريق أثبتوا معبودا سوى الله حيا عاقلا وهم النصارى . وفريق أثبتوا معبودا هو جماد ليس بحى ولا عاقل وهم عبدة الأصنام . والفريقان و إن اشتركا فى الضلال ، فضلال الفريق الثانى أشد ، ومن ثم قدم الكلام فى النصارى على الكلام فى عبدة الأصنام . وذكر قصص إبراهيم أوّلا لأنه أبو العرب وكانوا مقرين بعلوّ شأنه ، معترفين بدينه كما قال « مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ » إلى أنه تعالى نبههم إلى أن الطريق التى جروا عليها وهى التقليد بنحو قولهم « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ » تخالف طريق الاستدلال التى سار عليها أبوهم إبراهيم فى حجاجه مع أبيه آزر .

الإيضاح

(واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ؟) أى واتل أيها الرسول على قومك الذين يعبدون الأصنام ما كان من خبر إبراهيم خليل الرحمن الذين هم من ذريته و يدّعون أنهم على ملته (وهو الصدّيق النبى) . حين نهى قومه عن عبادتها وقال لأبيه : ما الذى حبّب إليك أن تعبد ما لا يسمع ثناءك عليه حين عبادتك له ، ولا يبصر خشوعك وخضوعك بين يديه ، ولا ينفعك فيدفع عنك ضرا إذا استنصرت به ؟

وقد سلك عليه السلام فى دعوته أجمل الآداب فى الحجاج ، واحتج بأروع

البرهانات ليرده عن غيه ، ويقفه على طريق الهدى والرشاد ، فاستهجن منه أن يعبد مايستخفّ به كل ذى لبّ ، ويأبى الركون إليه كل ذى عقل ، فالعبادة هى الغاية القصوى فى التعظيم ، فلا يستحقها إلا الخالق الرازق المحيى المميت المثيب المعاقب ، لا الأصنام التى لاتسمع الأصوات ، ولا تنظر الأشياء ، وتعجز عن جلب المنافع ودفع المضار .

وقصارى ما قال — إن الإنسان السميع البصير يأنف أن يعبد نظيره ، فكيف تعبد ماخرج من الألوهية بفقره وضعفه واحتياجه إلى من يصنعه ، وعن الإنسانية بفقد العقل ، وعن الحيوانية بفقد الحواس .

أما كان لك عبرة فى حاجته وفقده السمع والبصر ؟

(يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا) أى يا أبى إنى وإن كنت من صلبك وترانى أصغر منك لأنى ولدك ، فاعلم أنى قد اطلعت من العلم على ما لم تعلمه أنت ولا اطلعت عليه ، فاتبعنى أهدك طريقا مستقيما لازيغ فيه يوصلك إلى نيل المطلوب ، وينجيك من كل مرهوب .

وفى قوله : قد جاءنى إيماء إلى أن هـذه المحاورة كانت بعد أن نبئ ، ولم يعين ما جاءه ليشمل كل مايوصله إلى الجنة ونعيمها ، ويبعد به عن النار وعذابها .

(يا أبت لاتعبد الشيطان) أى لاتطع الشيطان فى عبادة هذه الأصنام ، فإنه هو الداعى إلى عبادتها والموسوس بها .

ونحو الآية قوله : « أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِى آدَمَ أَلاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ » وقوله : « إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَرِيدًا » .

ثم بين سبب النهى عن طاعته بقوله

(إن الشيطان كان للرحمن عصيا) أى إن الشيطان عاص مستكبر عمن شملته

رحمتك ، وعمته نعمتك ، ولا ريب فى أن من أطاع العاصى يكون عاصيا وجديرا بأن تسترد منه النعم ، وحقيقا بأن تنزل عليه النقم .

ثم حذره من سوء عاقبة ماهو فيه من عبادة الأصنام فقال :

(يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن) أى يا أبى إنى أخاف لمحبتى لك ، وغيرتى عليك ، أن يصيبك عذاب من الرحمن على شركك وعصيانك .

(فتكون للشيطان وليا) أى قرينا وتابعا له فى النار .

وقصارى ذلك — إنى أخاف أن تكون وليا للشيطان أى تابعا له فى الدنيا ، فيمسّك عذاب من الرحمن فى العقبى .

ولما دعا إبراهيم أباه إلى التوحيد ، وذكر الدلائل على فساد عبادة الأوثان ، وأردف ذلك بالوعظ واللطف ، قابله أبوه بجواب هو على ضد ذلك .

(قال أراغب أنت عن آلهتى يابراهيم ؟) أى أتكره آلهتى ولا ترغب فى عبادتها يابراهيم ؟

(لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا) أى لئن لم تنته عما أنت فيه من النهى عن عبادتها والدعوة إلى مادعوتنى إليه ، لأرجمنك بالحجارة ، فاحذرنى وابعد عنى بالمفارقة من الدار والبلد دهرا طويلا .

وقد قابل الأب رفق الابن بالعنف ، فلم يقل يابنى كما قال الابن يا أبت ، وقابل وعظه بالسفاهة ، إذ هدده بالشتم أو بالضرب بالحجارة بقوله : لئن لم تنته لأرجمنك .

وفى ذلك تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتأسية له بإبراهيم فيما كان يلقى من الأذى من قومه ويقاسيه منهم ومن عمه أبى لهب من العنت والمكروه .

ولما سمع إبراهيم عليه السلام كلام أبيه أجابه بأمرين :

(١) (قال سلام عليك) أى سلمت منى لا أصيبك بمكروه ما لم أومر فيك بشىء ، وهذا جواب الحليم للسفيه ، وفيه توديع ومتاركة ومقابلة للسيئة بالحسنة ، وزاد على ذلك أن قال :

(٢) (سأستغفر لك ربى) أى سأطلب لك من ربى الغفران ، بأن يوفقك للهداية ، وينير بصيرتك لقبول الحق ، ويرشدك إلى مافيه الخير ، ونحو الآية قوله : « وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ » .

وقصارى دعائه — رب اهد أبى وأخرجه من الضلال .

وإنما استغفر له ، لأنه كان قد وعده أن يؤمن كما قال : « وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ » .

ثم ذكر أنه محبب إلى ربه فإذا هو استغفر له أجاب طلبه فقال :

(إنه كان بى حفيا) أى إنه سبحانه للطفه بى وإنعامه علىّ عوّدنى الإجابة ، فإذا أنا استغفرت لك أغاثك بجوده وكرمه ، وغفر لك ذنوبك إن تبت إليه وأنبت.

ثم بين مابيّت النية عليه ، وعزم على إنفاذه فقال :

(وأعتزلكم وما تدعون من دون الله) أى وأتباعد عنك وعن قومك وعما تعبدون من الأوثان والأصنام ، وأفر بدينى وأتشاغل بعبادة ربى الذى ينفعنى ويضرنى ، إذ لم تؤثر فيكم نصائحى ، وقد روى أنه عليه السلام هاجر إلى بلاد الشام، وفى هجرته هذه تزوج سارّة .

(وأدعو ربى) أى وأعبده سبحانه وحده ، وأجتنب عبادة غيره من المعبودات .

(عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا) أى لعلى لا أكون بدعاء ربى المنعم علىّ خائب المسعى ، كما خبتم أنتم وشقيتم بعبادة تلك الأوثان التى لاتجيب دعاءكم ولا تنفعكم ولا تضركم .

وقد حقق ماعزم عليه ، فحقق الله رجاءه ، وأجاب دعاءه فقال :

(فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب ، وكلا جعلنا نبيا) أى فلما اعتزل إبراهيم أباه وقومه لم يضره ذلك لافى دين ولا دنيا ، بل نفعه إذ أبدله بهم من هم خير منهم ووهبه بنين وحفدة هم آباء الأنبياء من بنى إسرائيل

ولهم الشأن الخطير والقدر العظيم ، فقد وهبه إسحٰق وولد لإسحٰق يعقوب وقاما مقامه بعد موته وورثا منه النبوة . أما إسماعيل فتولى الله تربيته بعد نقله رضيعا إلى المسجد الحرام فأحيا تلك المشاعر العظام ، ومن ثم أفرده بالذكر بقوله : «وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ » الآية .

ثم صرح بما وهب لأولاده جزاء على هجرته بقوله :

(وكلاً جعلنا نبيا) أى وجعلنا له نسلا وعقبا من الأنبياء أقر الله بهم عينيه فى حياته .

(ووهبنا لهم من رحمتنا) أى وآتيناهم من فضلنا الدينى والدنيوى مالم تؤته أحدا من العالمين ، فآتيناهم النسل الطاهر والذرية المباركة ، وإجابة الدعاء واللطف فى القضاء والبركة فى المال والأولاد إلى نحو أولئك من خيرى الدنيا والآخرة .

(وجعلنا لهم لسان صدق عليا) فمحامدهم مذكورة فى جميع الأزمان ، سطرها الدهر على صفحاته استجابة لدعوته عليه السلام بقوله : « وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ » قال ابن جرير وإنما قال عليًّا ، لأن جميع الملل والأديان تثنى عليهم وتمدحهم ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقد اجتمعت لإبراهيم خلال لم تجتمع لسواه :

(١) إنه اعتزل قومه حبا فى الله فآتاه الله من هم خير منهم ، فوهب له إسماعيل وإسحٰق ويعقوب .

(٢) إنه تبرأ من أبيه حين تبين منه أنه عدو لله ، لاجرم سماه الله أبا المسلمين بقوله : « مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ » .

(٣) إنه تلّ ولده للجبين ، ليذبحه إطاعة لأمر الله ففداه الله بذبح عظيم .

(٤) إنه أسلم نفسه للنار ابتغاء رضوان الله فكانت عليه بردا وسلاما .

(٥) إنه أشفق على هـذه الأمة فقال : « رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ »

فأشركه الله فى الدعاء وفى الصلوات الخمس ـ وصل على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم .

(٦) إنه عادى كل الخلق فى الله فقال : « فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ » واتخذه الله خليلا كما أخبر بذلك الكتاب : « وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا » .

(٧) إن الله مدحه بقوله : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى » لأجرم جعل موطئ قدميه مباركا كما قال : « وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » .

قصص موسى عليه السلام

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣) .

شرح المفردات

مخلصا : أى مختارا مصطفى ، وقربناه : أى تقريب تشريف وتكريم ، والطور : هو الجبل الذى بين مصر ومدين ، ونجيا : أى مناجيا مكالما لله بلاواسطة .

الايضاح

(واذكر فى الكتاب موسى) أى واتل أيها الرسول على قومك ما اتصف به موسى عليه السلام من صفات الجلال والكمال التى سأقصها عليك ، ليستبين لك علو قدره وعظيم شأنه ، وتلك هى :

(١) (إنه كان مخلصا) أى إن الله أخلصه واصطفاه وأبعد عنه الرجس وطهره من الذنوب والآثام كما جاء فى الآية الأخرى : « إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي » .

(٢) (وكان رسولا نبيا) أى إن الله أرسله إلى الخلق داعيا ومبشرا ونذيرا ، والرسول هو من أرسله الله إلى الناس ومعه كتاب فيه شريعته التى أرسله بها كموسى عليه السلام ، والنبىّ هو الذى ينبئ عن الله ويخبر قومه عنه ، وليس معه كتاب كيوشع عليه السلام .

(٣) (وناديناه من جانب الطور الأيمن) أى وكلمناه من الجانب الأيمن للطور أى الذى عن يمين موسى حين أقبل من مدين متوجها إلى مصر وأنبأناه بأنه رسولنا ثم واعدناه إليه بعد إغراق آل فرعون ورحمنا بنى إسرائيل بإنزال الكتاب عليهم.

(٤) (وقربناه نجيا) أى وقربناه تقريب تشريف وإجلال حين مناجاته لنا ؛ وقد مثل حاله عليه السلام بحال من قربه الملك لمناجاته ، واصطفاه لمصاحبته ، ورفع الوسائط بينه وبينه .

وقصارى ذلك — إنه تجاوز العالم المادى وانغمس فى العالم الروحى ، فقرب من الله وارتقت نفسه حتى بلغت أقصى مناها ، واستعدت للاطلاع على عالم الملكوت ، ورؤية ما غاب عن عالم المادة .

(٥) (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا) أى ووهبنا له من بعض رحمتنا معاضدة أخيه ومؤازرته ، إجابة لدعوته عليه السلام بقوله : « وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي » وحققنا ما طلبه له ، وجعلناه نبيا : « قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى » .

قال بعض السلف : ما شفع أحد فى أحد فى الدنيا أعظم من شفاعة موسى فى هارون أن يكون نبيا ، قال ابن عباس : كان هارون أكبر من موسى بأربع سنين.

قصص إسماعيل عليه السلام

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥)

المعنى الجملى

قدم الكلام فى موسى على الكلام فى إسماعيل ليكون الحديث عن يعقوب وبنيه فى نسق واحد دون فاصل بينهما ، وإسماعيل هو إسماعيل بن خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ، وقد أثنى عليه ربه بما هو أهله ووصفه بصفات هى مفخرة البشر ومنتهى السموّ والفضل فى هذه الدنيا .

الإيضاح

(واذكر فى الكتاب إسماعيل) أى اتل أيها الرسول على قومك صفات أبيهم إسماعيل ، علهم يهتدون بهديه ، ويحتذون حذوه ، ويتخلقون بمثل ما له من مناقب وفضائل منها :

(١) (إنه كان صادق الوعد) فما وعد عدة إلا وفّى بها ، حتى وعد أباه بالصبر على الذبح فقال : « سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ » فصدق فى ذلك ووفّى بما قال ، وامتثل حتى جاءه الفداء .

وصدق الوعد من الصفات التى حث عليها الدين ، وشدد فيها أيما تشديد فقال تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ؟ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب : وإذا وعد أخلف . وإذا اؤتمن خان » وقد فقدت هذه الصفة من كثير من المسلمين ، فلا تجد عالما ولا جاهلا إلا وهو يتأى عنها ولا سيما التجار والصناع والعمال .

(٢) (وكان رسولا نبيا) أى وكان رسولا إلى جُرْهُم الذين حلوا بمكة معه ومع أمه ، وكان مرسلا من الله بتبليغ شريعة إبراهيم ، فنبأ بها قومه وأنذرهم وخوفهم ومن هذا يعلم أن الرسول لايجب أن ينزل عليه كتاب مستقل .

(٣) (وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة) أى إنه بعد أن كمل نفسه اشتغل

بتكميل أمته وأقرب الناس إليه ، على نحو ما قاله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » وقال : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا » وقال : « قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ».

(٤) (وكان عند ربه مرضيا) عمله ، محمودا فيما كلفه ربه ، غير مقصر فى طاعته فاقتد أيها الرسول به ، لأنه من أجل آبائك .

قصص إدريس عليه السلام

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) .

الإيضاح

(واذكر فى الكتاب إدريس) بالثناء عليه ، والنسابون يقولون إنه جد أبى نوح عليه السلام ، ويقولون إنه أول من خط بالقلم وخاط الثياب ولبس المخيط ، وكانوا قبله يلبسون الجلود ، وأول من نظر فى النجوم وتعلم الحساب ، وجعل الله ذلك من معجزاته .

وإن تقادم العهد وطول الزمن وعدم وجود السند الصحيح الذى يعول عليه فى الرواية ، يجعلنا فى شك من كل هذا ، فعلينا أن نكتفى بما جاء به الكتاب الكريم فى شأنه ، وقد وصفه الله بجملة صفات كلها مفاخر ومناقب إعظام وإجلال :

(١) (إنه كان صديقا) تقدم القول فيها .

(٢) (نبيا) » » »

(٣) (ورفعناه مكانا عليا) أى أعلينا قدره ورفعنا ذكره فى الملأ ، ونحو هذا قوله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ » ويرى بعض الباحثين

فى الآثار المصرية أن إدريس تعريب لكلمة (أوزريس ـ أموريس) وهو الذى ألف له المصريون القدماء رواية خلدت فى بطون تواريخهم ، ومنها أنه حصل بينه وبين أخيه تحاسد وشقاق أدى إلى قتله وتقطيعه إرْبًا إرْبًا ، فجمعت امرأته تلك القطع وحفظتها وحنطتها ، وجعلوه إلها بعد أن كان مصلحا عظيما .

وهذا القصص الخرافى جعل المصريين يُعْنَوْن بتحنيط الموتى ، وقد أفاد هذا العمل صناعة التحنيط ورقاها حتى صارت مضرب الأمثال فى الخافقين .

وقد كان الملك والدين فى عهد تلك الدولة أمرا واحدا ، فالملك يجمع بين شئون الدين والدنيا ، فمن عصى الملك فقد عصى الله .

ويعتقدون أن أوزريس صعد إلى السماء وصار إلى العالم العلوى وله عرش عظيم فى السماء ، ويتمتع بأعظم الخيرات ، وكل من حفظ جسمه ووزنت أعماله بعد الموت وحكم القضاة وهم اثنان وأربعون قاضيا بأن حسناته غلبت سيئاته ـ يلحق بأوزريس وهـذا النبى الذى جعلوه إلها بعد ذلك هو الذى علمهم العلوم والمعارف وينسبون الفضل فى ذلك إليه .

وقد ارتقت الأمة المصرية فى العلوم والمعارف إلى حد لم تصل إليه أمة أخرى لا فى القديم ولا فى الحديث ، وخدمت النوع البشرى خدمة جليلة ، فارتفاع إدريس إلى السماء راجع إلى رقى تعاليمه وانتفاع أمته بها ، فالنبى بأمته ، ومن ثم تجد آثار أمته بادية للعيان بعد أن كانت خافية عن الأنظار .

وبعد أن ذكر الله أولئك المرسلين أخذ يعدد مناقبهم ويذكر صفاتهم فقال :

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨) .

شرح المفردات

إسرائيل : يعقوب عليه السلام، واجتباه : اصطفاه واختاره ، والسجّد، واحدهم ساجد ، والبكيّ : واحدهم باكٍ، يقال بكى يبكى بكاء ، و بكيا: قال الخليل: إذا قصرت البكاء فهو مثل الحزن أى لاصوت معه كما قال الشاعر :

بكت عينى وحق لها بكاها وما يغنى البكاء ولا العويل

المعنى الجملى

بعد أن أفرد الله كل رسول من رسله العشرة الذين سبق ذكرهم بالثناء عليه بما هو جدير به ـ أردفه بذكر بعض ما جازاهم به من النعم ، فقد هداهم إلى سبل الخير واصطفاهم من سائر خلقه .

الإيضاح

(أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين) أى هؤلاء النبيون الذين قصصت أنباءهم عليك أيها الرسول هم الذين أنعم الله عليهم بما خصهم به من مزيد القرب إليه ، وعظيم المنزلة لديه ، وهداهم إلى سبيل الرشاد ، ورفع ذكرهم بين العباد .

(من ذرية آدم) أبى البشر الأول .

(وممن حملنا مع نوح) أى ومن ذرية من حملنا مع نوح أبى البشر الثانى فى الفلك كإبراهيم خليل الرحمن .

(ومن ذرية إبراهيم) وهم إسحاق و يعقوب و إسماعيل .

(و إسرائيل) أى ومن ذرية إسرائيل أى يعقوب عليه السلام، وهم : موسى وهرون وزكريا وعيسى وأمه مريم .

(وممن هدينا واجتبينا) أى ومن جملة من هديناهم إلى سبيل الحق ، واجتبيناهم للنبوة والكرامة .

(إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا) أى إذا تتلى على هؤلاء الأنبياء الذين أنعم الله عليهم أدلة الله وحججه التى أنزلها عليهم فى كتبه ـ خروا لله سجدا استكانة له وتذللا وخضوعا لأمره وانقيادا ، وهم باكون خشية منه وحذرا من عقابه .

قال صالح المرى : قرأت القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال: يا صالح هذه القراءة فأين البكاء ؟ وفى الحديث « اتلوا القرآن وابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا » . وعن ابن عباس : إذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا ، فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه .

وقصارى ذلك — إنه سبحانه أبان علوّ أمرهم فى الدين والنسب والقرب منه .

جزاء خلف هؤلاء ممن ضل وغوى

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠) .

شرح المفردات

الخلْف : (بسكون اللام) عقب السوء ، ويقال لعقب الخير والصدق خلَف (بفتح اللام) ، أضاعوا الصلاة : أى تركوها بقاتا ، اتبعوا الشهوات : أى انهمكوا فى المعاصى واللذات ، غيّا : أى ضلالا ، والمراد يلقون جزاءه فى نار جهنم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حزب السعداء وهم الأنبياء ومن تبعهم بإحسان ممن قاموا بحدود الدين فاتبعوا أوامره وأدوا فرائضه وتركوا نواهيه ـ أردف هذا بذكر من

خلفهم ممن أضاعوا واجباته ، وأقبلوا على شهوات الدنيا ولذاتها ، وأعقب هذا بذكر ما ينالهم من النكال والوبال فى الآخرة إلا من تاب وأناب فإن الله يقبل توبته ، ويحسن عاقبته ، ويجعله من ورثة جنة النعيم ، ولا ينقصه شيئا من جزاء أعماله . قال مجاهد : نزلت هذه الآية فى قوم من هذه الأمة يتراكبون فى الطرق كما تراكب الأنعام لا يستحيون من الناس ولا يخافون من الله فى السماء ، وأخرج أحمد وابن حبان والحاكم فى جماعة آخرين عن أبى سعيد الخدرى قال : سمعت رسول الله صلى عليه وسلم وتلا هذه الآية قال : « يكون خلف من بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ، ثم يكون خلف يقرءون القرآن لا يعدو تراقيهم ، ويقرأ القرآن ثلاثة : مؤمن ، ومنافق ، وفاجر .

وأخرج أحمد والحاكم وصححه عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «سيهلك من أمتى أهل الكتاب وأهل اللبن» قلت يارسول الله ما أهل الكتاب ؟ قال : « قوم يتعلمون الكتاب يجادلون به الذين آمنوا » قلت وما أهل اللبن؟ قال : « قوم يتبعون الشهوات ، ويضيعون الصلوات » .

الإيضاح

(فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات) أى فجاء من بعد الأنبياء الذين ذكروا ـ خلف سوء خلفوهم فى الأرض كاليهود والنصارى ومن على شاكلتهم من أهل الضلال ، إذ تركوا الصلوات المفروضة عليهم ، وآثروا شهواتهم على طاعة الله ، فانكبوا على شرب الخمور ، وشهادة الزور ، ولعب الميسر ، وإتيان الفاحشة خفية وعلانية .

ثم ذكر عاقبة أعمالهم وسوء مآلهم فقال :

(فسوف يلقون غيًّا) أى شرا وخسرانا لإهمالهم أداء واجبات الدين وانهماكهم فى المعاصى والآثام .

(إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة) أى لكن من أنابوا إلى ربهم ، وأقلعوا عن ذنبهم ، وآمنوا بالله ورسوله وأطاعوه فيما أمر به وأدوا فرائضه ، فأولئك يدخلهم ربهم جناته ، ويغفر لهم حَوْبَاتهم ، فالتوبة تجُبّ ما قبلها كما جاء فى الحديث « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » .

(ولا يظلمون شيئا) أى ولا ينقصون شيئا من ثواب أعمالهم ، إذ أفعالهم السابقة ذهبت هباء وصارت نسيا منسيا بكرم اللطيف الخبير، وعظيم حلمه على عباده .

ولما ذكر أن التائب يدخل الجنة وصف هذه الجنة بأمور فقال :

جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (٦٣) .

شرح المفردات

جنات عدن : أى جنات إقامة، وهذا وصف لها بالدوام ، بالغيب ، أى وهى غائبة عنهم ، وعده، أى ماوعد به من الجنات ، مأتيا، أى يأتيه من وعد به لا محالة ، لغوا أى فضولا من الكلام لاطائل تحته ، سلاما، أى سلاما من الله أو من الملائكة .

المعنى الجملى

لما ذكر سبحانه أنه يدخل التائبين الجنة ــ وصف هذه الجنة بجملة أوصاف كلها غاية فى تعظيم أمرها ، وشريف قدرها ، وجليل خطرها .

الإيضاح

أوصاف هذه الجنة :

(١) (جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتيا) أى هذه الجنات هى جنات إقامة دائمة لا كجنات الدنيا ، وقد وعد بها المتقين وهى غائبة عنهم لم يشاهدوها ، ووعد الله لا يخلف ، فهم آتوها لامحالة .

(٢) (لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما) أى لا يسمع المتقون فيها فضول القول وما لا طائل تحته ، ولكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم بما يشعرهم بالأمان والاطمئنان ، وهما منتهى السعادة ، والدنيا لاطمأنينة فيها ولا استقرار فلا سعادة فيها ولا نعيم ، ومن ثم طلب إلينا أن ندعو فى الصلاة بالأمان ونقول : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

ولا شك أن تكرار هذه العبارة فى الصلوات يحدث فى النفس أثرا إذا أدركت مغزاها ، ويشعر بأن الله لم يخلق العالم إلا لغاية واحدة وهى الطمأنينة ، ولا تكون إلا إذا أمن المرء الفقر والمرض والشيخوخة ، وأنى لنا بذلك فى الدنيا ؟ وإنما تكون الطمأنينة لعباده المتقين فى الآخرة ، وهذا المعنى هو الذى تترجم عنه الجملة (السلام عليكم) أى إن الأمان سيحققه الله لكم بأن يأمن بعضكم بعضا فى الدنيا وفى الآخرة بالخروج من جميع المآزق .

وهذا الدعاء أمنية من أمانى النفوس لا تتحقق إلا إذا أمن الإنسان العذاب والعقاب وانتهى الحساب وارتفع السوء كالمرض والموت والفقر والذل يوم القيامة .

(٣) (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) أى ولهم مايشتهون من المطاعم والمشارب فى قدر وقت البكرة ووقت العشى من نهار أيام الدنيا أى إن الذى بين غدائهم وعشائهم فى الجنة قدر ما بين غداء أحدنا فى الدنيا وعشائه .

وخلاصة ذلك — إنه لا بكرة فى الجنة ولا عشى ، إذ لا ليل ولا نهار ، وإنما يؤتون بأرزاقهم فى مقدار طرفى النهار كما كانوا فى الدنيا .

ولما ذكر أن هذه الجنة تخالف جنات الدنيا — ذكر الدواعى التى توجب استحقاقها فقال :

(تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا) أى هذه الجنة التى وصفت بهذه الصفات الشريفة ، نورثها عبادنا المتقين الذين يطيعون الله فى السر والعلن ،

ويحمدونه على السراء والضراء ، والمراد أننا نجعلها ملكا لهم كملك الميراث الذى هو أقوى تمليك ، وجاء بمعنى الآية قوله : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ » إلى أن قال : « أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)

شرح المفردات

التنزل : النزول وقتا غبّ وقت ، ما بين أيدينا : أى ما قدامنا من الزمان المستقبل ، وما خلفنا : أى من الزمان الماضى ، وما بين ذلك : هو الزمان الحاضر ، نسيّا ، أى تاركا لك ، واصطبر عليها ، أى اثبت لشدائد العبادة وما فيها من المشاق كما تقول للمبارز : اصطبر لقرينك ، أى اثبت له فيما يورد عليك من حملاته ، سميًّا أى مثلا ونظيرا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام تثبيتا له صلى الله عليه وسلم وأعقبه بذكر ما أحدثه الخلف بعدهم ، وذكر جزاء الفريقين ، أعقب ذلك بقصص تأخر نزول جبريل على النبى صلى الله عليه وسلم ؛ إذ زعم المشركون أن الله ودّعه وقلاه ، وقد رد عليهم زعمهم وأبان لهم أن الأمر على غير ما زعموا .

روى أن جبريل عليه السلام احتبس عنه صلى الله عليه وسلم أياما حين سئل عن قصة أصحاب الكهف وذى القرنين والروح ، ولم يدر عليه السلام كيف يجيب ؟

فحزن واشتد عليه ذلك ، وقال المشركون إن ربه ودعه وقلاه ، فلما نزل قال له عليه السلام ياجبريل احتبست عنى حتى ساء ظنى ، واشتقت إليك ، فقال إنى إليك لأشوق ، ولكنى عبد مأمور إذا بعثت نزلت ، و إذا حبست احتبست ، وأنزل الله هذه الآية ، وعن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ فنزلت هذه الآية إلى آخرها .

الإيضاح

(وما نتنزل إلا بأمر ربك) أى وما تنزل الملائكة بالوحى على الرسل وقتا بعد وقت إلا بأمر الله على ما تقتضيه حكمته ، وتدعو إليه مصلحة عباده ، ويكون فيه الخير لهم فى دينهم ودنياهم .

ثم علل الملك ذلك بقوله :

(له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك) أى إنه تعالى هو المدبر لنا فى جميع الأزمنة مستقبلها وماضيها وحاضرها .

وقصارى ذلك — إن أمرنا موكول إلى الله تعالى يتصرف فينا على حسب مشيئته و إرادته لا اعتراض لأحد عليه ، فلا ننتقل من مكان إلى مكان ، ولا ننزل فى زمان دون زمان إلا بإذنه عزّ وجل .

(وما كان ربك نسيا) أى إنه تعالى لإحاطة علمه بملكه ، لايطرأ عليه غفلة ولا نسيان حتى يغفل عنك وعن الإيحاء إليك ، و إنما كان تأخير الوحى لحكمة علمها جل شأنه . أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والطبرانى فى جماعة آخرين عن أبى الدرداء مرفوعا قال «ما أحل الله فى كتابه فهو حلال وما حرمه فهو حرام وما سكت عنه فهو عافية ، فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئا ثم تلا : « وما كان ربك نسيا » .

ثم أقام الدليل على ما تقدم بقوله :

(رب السموات والأرض وما بينهما) فلا يجوز عليه النسيان ، فإن من بيده ملكوت كل شيء ، كيف يتصور أن تحوم حوله الغفلة والنسيان .

ثم بين ماينبغي المرء أن يفعله بعد أن عرف هذا فقال :

(فاعبده واصطبر لعبادته) أي وإذ قد علمت أنه الرب المسيطر على ما في السموات والأرض وما بينهما ، القابض على أعنتهما ، فاعبده ودم على مشاق العبادة وشدائدها ، وإياك أن يصدك عنها ما يحدث من إبطاء الوحي وتقوّل المشركين الخرّاصين عن سببه :

ثم أكد الأمر بالعبادة بقوله :

(هل تعلم له سميا ؟) أي هل تعلم له شبيها ومثلا يقتضي العبادة لكونه منعما متفضلا بجليل النعم وحقيرها ، ومن ثم يجب تعظيمه غاية التعظيم بالاعتراف بربوبيته ، والخضوع لسلطانه .

وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا (٧٠) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢) .

شرح المفردات

يذكر : أي يتذكر ويتفكر ، لنحشرنهم : أي لنجمعنهم ، جثيا ، واحدهم جاثٍ وهو البارك على ركبتيه ، شيعة : أي جماعة تعاونت على الباطل وتشايعت عليه ،

عتيا : أى تكبرا ومجاوزة للحد ، صليّا : أى دخولا فيها من صلى بالنار إذا قاسى حرها ، واردها : أى مارّ عليها ، حتما : أى واجبا ، مقضيا : أى قضى بوقوعه البتة.

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه بالعبادة والمصابرة عليها على مافيها من مشاقّ وشدائد — أبان فائدة ذلك وهى أنها تنجيهم يوم الحشر يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، وهو يوم لاريب فيه ولا وجه لإنكاره ، فإن إعادة الإنسان أهون من بدئه ، ثم ذكر ما يلقاه الكافرون يومئذ من الذل والهوان ، ثم أردف ذلك ببيان أن جميع الخلائق ترد على النار ولا ينجو منها إلا من اتقى ربه وأخلص فى عمله .

روى الكلبى أنها نزلت فى أبىّ بن خلف . أخذ عظما باليا فجعل يفته بيده ويذريه فى الريح ويقول: زعم فلان أنا نبعث بعد أن نموت ونكون مثل هذا ، إن هذا لن يكون أبدا .

الإيضاح

(ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا) أى ويقول الكافر الذى لايصدق بالبعث بعد الموت متعجبا مستبعدا : أأخرج حيا مرة أخرى فأبعث بعد الموت والبلى ؟ وأسند القول إلى الكفرة جميعا وإن لم يقل هذه المقالة إلا بعضهم من حيث رضاهم عن هذا المقال وسكوتهم عن إنكاره كما سلف لك من قبل .

ثم أقام الدليل على صحة ذلك بقوله :

(أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ؟) أى أو لايتفكر الإنسان المجترئ على ربه المنكر لتلك الإعادة بعد الفناء ، وللاحياء بعد الممات ،

أن الله خلقه من قبل مماته ، فأنشأه بشرا سويا من غير شيء ، فليعتبر بذلك وليعلم أن من أنشأه كذلك لا يعجز عن إحيائه بعد مماته ، وإيجاده بعد فنائه .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ : أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ » وقوله : « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » وقوله : « وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » وفى الحديث القدسى : « يقول الله تعالى : كذبنى ابن آدم ولم يكن له أن يكذبنى ، وآذانى ابن آدم ولم يكن له أن يؤذينى ، أما تكذيبه إياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون علىّ من آخره ، وأما أذاه إياى فقوله : إن لى ولدا وأنا الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » .

ولما قرر القضية وأقام عليها الدليل أردفها بالتهديد من وجوه فقال :

(١) (فوربك لنحشرنهم والشياطين) أقسم الرب بنفسه الكريمة أنه حاشرهم جميعا وشياطينهم الذين كانوا يعبدونهم من دون الله .

وفى قسمه على جمعهم وسوقهم إلى المحشر دون القسم على بعثهم ، تنبيه إلى أن ذلك غنىّ عن الإثبات بعد أن أقام البرهان على إمكانه ، وإنما الذى يحتاج إلى ذلك ما بعده من الشدائد والأهوال .

روى أن الكافرين يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين كانوا يغوونهم ، كل منهم مع شيطانهم .

(٢) (ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا) أى ثم لنحضرنهم بعد طول الوقوف حول جهنم من خارجها ـ جاثين على ركبهم إهانة لهم ، أو لعجزهم عن القيام لما حل بهم من المكاره والأهوال .

(٣) (ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا) أى لنأخذن من

كل جماعة منهم من هو أشد على الرحمن الذى غمرهم بإحسانه ـ تكبرا ومجاوزة للحدود التى سنها لخلقه .

وقصارى ذلك — إن الله تعالى يحضرهم أولا حول جهنم ، ثم يميز بعضهم عن بعض ، فمن كان أشدهم تمردا فى كفره ، خص بعذاب أعظم ، فعذاب الضال المضل فوق عذاب من يضل بالتبع لغيره .

(ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا) أى ثم لنحن العالمون بظواهر أعمالهم وبواطنها ، وبما اجترحوا من السيئات ، وبما دسوا به أنفسهم من الموبقات ، مَن هم أولى بجهنم دخولا واحتراقا ، فنبدأ بهم أولا ثم بمن يليهم .

وخلاصة هذا — إنهم جميعا يستحقون العذاب ، لكنا ندخلهم فى جهنم على حسب عتيهم وتجبرهم فى كفرهم .

ثم خاطب سبحانه الناس جميعا فقال :

(وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا) أى وما أحد منكم أيها الناس إلا يدنو من جهنم ويصير حولها ، قد قضى ربك بذلك وجعله أمرا محتوما مفروغا منه .

روى السدى عن ابن مسعود قال: «يرد الناس جميعا الصراط، ويقومون حول النار ، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم ، فمنهم من يمر مثل البرق ، ومنهم من يمر مثل الريح ، ومنهم من يمر مثل الطير ، ومنهم من يمر كأجود الخيل ، ومنهم من يمر كأجود الإبل، ومنهم من يمر كعدو الرجل...» فى حديث طويل ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يرد الناس كلهم ثم يصدرون بأعمالهم .

(ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا) أى إذا مر الخلائق كلهم على النار وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة على قدر ما اجترحوا من الآثام والذنوب ـ نجى الله المتقين منها على حسب أعمالهم ، وترك الكافرين جاثين على الركب كما جاءوا .

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا (٧٤) قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا (٧٥) وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا (٧٦) .

شرح المفردات

بينات : أى ظاهرات الإعجاز ، مقاما : أى مكانا ومنزلا ، نديا : أى مجلسا ومجتمعا ، ومثله النادى ؛ وقيل هو المجلس الذى يجتمع فيه لحادثة أو مشورة ومنه دار الندوة التى كان المشركون يتشاورون فيها فى أمورهم، والقرن: أهل كل عصر، والأثاث: متاع البيت من الفرش والثياب وغيرها ولا واحد له ، والرئى المنظر والمراد به النضارة والحسن ، فليمدد : أى فليمهله بطول العمر والتمكن من سائر التصرفات ، جندا : أى أنصارا ، والباقيات الصالحات : أى الطاعات التى تبقى آثارها ، مردّا : أى مرجعا وعاقبة .

المعنى الجملى

بعد أن أقام سبحانه الحجة على مشركى قريش المنكرين للبعث بعد الفناء ، وللعودة إلى حياة أخرى ـ أتبعه بذكر شبهة أخرى قالوها وعارضوا بها حجة الله التى يشهد بصحتها كل منصف ، ويعتقدها من له أدنى مُسْكة من عقل .

تلك أنهم قالوا : لو كنتم على الحق وكنا على الباطل لكان حالكم فى الدنيا أحسن وأطيب من حالنا ، من قِبَل أن الحكيم لا يجدر به أن يوقع المخلصين من

أوليائه فى الذل والمهانة ، وأعداءه فى العز والراحة، لكنا نجد الأمر على العكس من هذا ، فإنا نحن الذين يتمتعون برفاهية العيش والرخاء والنعيم ، وأنتم فى ضنك وفقر وخوف وذل ، فهذا دليل على أنا على الحق وأنتم على الباطل .

وقد رد الله عليهم مقالتهم بأن الكافرين قبلكم وهم كانوا أحسن منكم حالا ، وأكثر مالا ، قد أبادهم الله وأهلكهم بعذاب الاستئصال ، فدل هذا على أن نعيم الدنيا لا يرشد إلى محبة الله لمن أوتوه ، ولا إلى أنهم مصطفون له من بين خلقه .

روى أن قائل هذه المقالة النضر بن الحارث ومن على شاكلته من قريش ، للمؤمنين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وكانوا فى خشونة من العيش وفى رثاثة من الثياب ، وهم كانوا يرجّلون شعورهم ويلبسون فاخر الثياب .

ثم أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيب هؤلاء المفتخرين بحظوظهم الدنيوية ببيان مآل الفريقين يوم القيامة ، وأن ما كان للمشركين فى الدنيا من المال وسعة الرزق فإنما ذلك استدراج وإمهال من الله لهم ، ثم يلقون النكال والوبال فى جهنم وبئس القرار .

الإيضاح

(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ؟) أى وإذا تتلى على المشركين آياتنا واضحات الدلالة قالوا مفتخرين على المؤمنين ، ومحتجين على صحة ما هم عليه من الباطل ، أىّ الفريقين منا ومنكم أوسع عيشا وأنعم بالا وأفضل مسكنا وأحسن مجلسا وأجمع عددا ؟ أنحن أم أنتم ؟ فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل ، وأولئك المستخفون المستترون فى دار الأرقم بن أبى الأرقم ونحوها من الدور على الحق ؟

ونحو الآية قوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ » .

وقد رد الله عليهم شبهتهم بقوله :

(وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا) أى وكم من أمة من المكذبين قد أهلكناهم بكفرهم وقد كانوا أحسن من هؤلاء أموالا وأثاثا ومناظر ذات جمال وزخرف .

وخلاصة هذا — إن كثيرا ممن كانوا أعظم منكم نعمة فى الدنيا كعاد وثمود وأضرابهم من الأمم العاتية قد أهلكهم الله ، فلو صدق ما تدّعون من أن النعمة فى الدنيا تدل على الكرامة عند الله ، ما أهلك أحدا من المتنعمين بها .

وفى هذا تهديد ووعيد لايخفى ، وكأنه قيل فليرتقب هؤلاء ، فسيحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم من المثلات .

ثم أمر الله نبيه أن يجيب هؤلاء المفتخرين بقوله :

(قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا . حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المدعين أنهم على الحق ، وأنكم على الباطل : إن ما افتخرتم به من زخرف الدنيا وزينتها لايدل على حسن الحال فى الآخرة ، فقد جرت سنة الله بأن من كانوا منهمكين فى الضلالة ، مرخين لأنفسهم الأعنّة ، فى سلوك المعاصى والآثام ، يبسط لهم نعيم الدنيا ، ويطيب عيشهم فيها ، ويمتعهم بأنواع اللذات ، ولا يزال يمهلهم استدراجا لهم إلى أن يشاهدوا ما وعدوا به رأى العين ، إما عذابا فى الدنيا كما حصل يوم بدر ، وإما مجىء الساعة وهم بها مكذبون ، وعن الاستعداد لها مفرطون ، وإذ ذاك يعلمون من هو شر من الفريقين مكانا ، وأن الأمر على عكس ما كانوا يقدرون ، ويرون أنهم شر مكانا وأضعف جندا وأقل ناصرا من المؤمنين ، وهذا رد على قولهم (أىّ الفريقين خير مقاما وأحسن نديا) .

ومقتضى ذلك — إن من كان فى الضلالة فسنة الله أن يمد له ويستدرجه ليزداد إثما ، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر إما بعذاب فى الدنيا يأتيه من حيث

لايحتسب ، وإما بعذاب فى الآخرة لا قِبَل له بدفعه ، وحينئذ يعلم أنه كان فى ضلال مبين ، و يندم ، ولات ساعة مندم .

ندم البغاة ولات ساعة مندم والبغى مرتع مبتغيه وخيم

ولا يجد عن النار محيصا ولا مهربا .

(ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) أى ويزيد الله الذين اهتدوا إلى الإيمان هدى بما ينزل عليهم من الآيات ، عوضا مما منعوا من زينة الدنيا كرامة لهم من ربهم ، كما بسط للضالين فيها لهوانهم عليه .

ومجمل هذا — إن من كان فى الضلالة من الفريقين يمهله الله و ينفس له فى حياته ليزداد فى الإثم والغىّ ويجمع له عذاب الدارين ، ومن كان فى الهداية منهما يزيد الله فى هدايته ويجمع له خيرى السعادتين .

(والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا) أى والطاعات التى بها تنشرح الصدور ، وتستنير القلوب ، وتصل إلى القرب من الله ، ونيل رضوان — خير عند ربك منفعة وعاقبة مما متع به أولئك الكفرة من النعم الفانية التى يفخرون بها من مال وولد وجاه ومنافع تحصل منها ، فإن عاقبة الأولين السعادة الأبدية ، وعاقبة أولئك الحسرة الدائمة والعذاب المقيم .

وخلاصة هذا — إن الطاعات التى يبقى ثوابها لأهلها خير عند ربهم جزاء وخير عاقبة من مقامات هؤلاء المشركين بالله وأنديتهم التى بها يفخرون على أهل الإيمان فى الدنيا .

أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمٰنِ عَهْدًا (٧٨) كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠) .

شرح المفردات

أطلع الغيب ؟ من قولهم اطلع الجبل إذا ارتقى إلى أعلاه : أى أظهر له علم الغيب ؟ عهدا : أى عملا صالحا ، كلا : كلمة زجر وتنبيه إلى الخطأ ، سنكتب مايقول أى سنظهر له أنا كتبنا ، ونمد له من العذاب : أى سنطيل له العذاب الذى يستحقه ونرثه ما يقول : أى نسلب ذلك منه بموته ونأخذه أخذ الوارث ما يرثه ، والمراد بما يقول مدلوله ومصداقه ، وهو ما أوتيه فى الدنيا من المال والولد ، فردا : أى لا يصحبه مال ولا ولد .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه الدلائل على صحة البعث ثم أورد شبه المنكرين له وأجاب عنها بما فيه مقنع لكل ذى لب ـ قفى على ذلك بذكر مقالتهم التى قالوها استهزاء وطعنا فى القول بالحشر والبعث .

أخرج البخارى ومسلم والترمذى والطبرانى وابن حبّان عن خَبّاب بن الأرَتّ قال : « كنت رجلا قينا (حدادا) وكان لى على العاص بن وائل دَين فأتيته أتقاضاه فقال لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت لا والله لا أكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم حتى تموت ثم تبعث ، قال فإنى إذا مِتُّ ثم بعثت جئتنى ولى ثَمَّ مال وولد فأعطيك ، فأنزل الله تعالى : « أَفَرَأَيْتَ الآية » .

الإيضاح

(أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا) أى انظر إلى حال هذا الكافر واعجب من مقالته الشنيعة وجرأته على الله ، إذ قال لأعطين فى الآخرة مالا وولدا .

ولما كان ما ادعاه لا علم له به إلا بأحد أمرين ـ الاطلاع على الغيب أو اتخاذ العهد ـ ولم يحصل له واحد منهما ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله :

(أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا ؟) أى إن ما ادعى أنه سيكون ، لا يعلم إلا بأحد الأمرين : إما علم الغيب ، وإما عهد من عالم الغيب ، فبأيهما هو قد وصل إليه ؟ .

وقصارى ذلك — أو قد بلغ من عظم شأنه أن ارتقى إلى علم الغيب الذى انفرد به الواحد القهار ، أم أعطاه الله عهدا موثقا وقال له : إن ذلك كائن لا محالة ؟ .

ثم زاد فى تأكيد خطئه وهدده بقوله :

(كلا سنكتب ما يقول ونمدّ له من العذاب مدّا) أى ليس الأمر كذلك ، ما اطلع على الغيب فعلم صدق ما يقول وحقيقة ما يذكر ، ولا اتخذ عند الرحمن عهدا موثقا بذلك ، بل كذب وكفر بربه ، وسنظهر له أننا كتبنا قوله ، ونزيده من العذاب فى جهنم بقيله الكذب والباطل فى الدنيا زيادة على كفره بالله وتكذيبه برسوله .

(ونرثه ما يقول ويأتينا فردا) أى ونسلبه ما عنده من المال والولد ونأخذه منه أخذ الوارث ما يرث ، ويأتينا إذ ذاك فردا لا يصحبه مال ولا ولد مما كان له فى الدنيا.

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٨٧)

شرح المفردات

العز : المنعة والقوة ، سيكفرون : أى سيجحدون ، ضدّا : أى أعداء وأعوانا عليهم ، والأزّ والهز والاستفزاز : شدة الإزعاج ؛ والمراد الإغراء على المعاصى والتهييج

لها بالتسويلات ، وتحبيب الشهوات ، فلا تعجل عليهم : أى فلا تطلب الاستعجال بهلاكهم ، الوفد والوفود والأوفاد : واحدهم وافد ، وهم القوم يقدمون على الملوك يستنجزون الحوائج ، والمراد يقدمون مكرمين مبجلين ركبانا ، إلى الرحمن : أى إلى دار كرامته وهى الجنة ، وردا : أى مشاة مهانين باستخفاف واحتقار كأنهم نَعَم تساق إلى الماء ، والمراد بالعهد شهادة أن لا إله الا الله والتبرى من الحول والقوة وعدم رجاء أحد إلا الله

المعنى الجملى

بعد أن ذكر إنكار المشركين للبعث مع قيام الدليل على إمكانه بما يشاهد من أمر الخلق فى النشأة الأولى ـ أردف ذلك بالرد على عباد الأصنام الذين اتخذوا أصنامهم آلهة ليعتزوا بهم يوم القيامة عند ربهم ، ويكونوا شفعاء لهم لديه ، فبيَّن أنهم سيكونون لهم أعداء ، وأنه ما جرأهم على تلك الغواية إلا وسوسة الشيطان لهم ، ثم طلب إلى رسوله ألا يستعجل المشركين فإنما هى أنفاس معدودات ثم يهلكون ، ثم ذكر ما يحوط المؤمنين من الكرامة حين وفودهم إلى ربهم ، وما يحيق بالمشركين من الإهانة حين يردون عليه .

الإيضاح

(واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا) أى واتخذ المشركون من قومك أيها الرسول ـ آلهة يعبدونهم من دون الله ، ليعتزوا بهم ويجعلوهم شفعاء عند ربهم يقربونهم إليه .

(كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدّا) أى ليس الأمر كما ظنوا وأمارا فى أنها تنقذهم من عذاب الله وتنجيهم منه ، بل ستجحد الآلهة عبادتهم إياهم وينطق الله من لم يكن ناطقا منهم ، فيقولون ما عبدتمونا كما قال سبحانه :

« وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ ، فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ » وقال : « إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا » وقال حاكيا عنهم : « مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ » ويكونون أعداء لهم وأعوانا عليهم إذ يلعنونهم ويتبرءون منهم .

وبعد أن ذكر سبحانه ما لهؤلاء الكفار مع آلهتهم فى الآخرة ، ذكر ما لهم مع الشياطين فى الدنيا ، وأنهم يتولونهم وينقادون لهم فقال :

(ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزّا) أى ألم تعلم أنا سلطنا الشياطين على الكافرين ومكناهم من إضلالهم ، فهم يغرونهم بالمعاصى ، ويهيجونهم على الوقوع فيها .

وخلاصة ما سلف — تعجيب رسوله صلى الله عليه وسلم مما حكته الآيات السالفة عن هؤلاء الكفرة من تماديهم فى الغى ، وانهماكهم فى الضلال ، وتصميمهم على الكفر بدون رادع ولا زاجر ، ومدافعتهم للحق مع وضوحه ، وتنبيه له إلى أن ذلك إنما كان بإضلال الشياطين وإغوائهم ، لا لقصور فى التبليغ .

وفى هذا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتهوين للأمر على نفسه .

(فلا تعجل عليهم) بأن تطلب إهلاكهم وإبادتهم بعذاب الاستئصال حتى تطهر الأرض من خبائث أعمالهم .

ثم علل هذا النهى بأن حين هلاكهم قريب فقال :

(إنما نعدّ لهم عدّا) أى إنه لم يبق لهم إلا أيام وأنفاس قليلة نعدها عدا ، وعن ابن عباس أنه كان إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : آخر العدد خروج نفسك . آخر العدد فراق أهلك ، آخر العدد دخول قبرك — وعن ابن السماك أنه كان عند المأمون فقرأ الآية ثم قال : إذا كانت الأنفاس بالعدد ، ولم يكن لها مدد ، فما أسرع ماتنفد :

إن الحبيب من الأحباب مختلس لايمنع الموت بواب ولا حرس
وكيف يفرح بالدنيا ولذتها فتى يعد عليه اللفظ والنفس

وقد أفصح عن هذا شاعر مصر أحمد بك شوقى فقال :

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوانى

ثم بين سبحانه ما سيظهر فى ذلك اليوم من الفصل بين المتقين والمجرمين فى كيفية الحشر فقال :

(يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا) أى واذكر أيها الرسول لقومك ، يوم نحشر المتقين إلى دار الكرامة ركبانا كما يفد الوافدون على أبواب الملوك ينتظرون إكرامهم و إنعامهم .

وقد أثر عن على أنه قال : والله ما يحشر الوفد على أرجلهم ، ولا يساقون سوقا ولكنهم يؤتون بنوق لم ير الخلائق مثلها ، وعليها رحال الذهب ، وأزمتها الزبرجد ، فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة ـ وهذا تمثيل لحالهم فى عزهم وعظمتهم وإكرام ربهم لهم .

(ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا) أى ونسوق الكافرين بالله إلى جهنم مشاة قد تقطعت أعناقهم من العطش ، فهم كالدواب التى ترد الماء .

(لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا) أى لا يملك العباد الشفاعة إلا من اتخذ عهدا عند الله بأن أعد لها عدتها فكان فى الدنيا هاديا مصلحا ، فيكون فى الآخرة شافعا مشفعا ، لاجرم أن ينالها فى الآخرة على مقدار هدايته فى الدنيا ، فالشفاعة حينئذ لا تكون إلا للأنبياء والعلماء والشهداء على مقدار أتباعهم .

روى أن ابن مسعود قرأ هذه الآية ثم قال : أَتَّخِذُ عند الله عهدا ، فإن الله يقول يوم القيامة : من كان له عند الله عهد فليقم ، قالوا يا أبا عبد الرحمن فعلِّمْنا ، قال: قولوا «اللهم فاطر السموات الأرض عالم الغيب والشهادة ، إنى أعهد إليك فى هذه الحياة الدنيا ألا تكلنى إلى عمل يقربنى من الشر و يباعدنى من الخير ، و إنى لا أثق إلا برحمتك ، فاجعل لى عندك عهدا تؤديه إلىّ يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد» .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أدخل على مؤمن سرورا فقد سرنى ، ومن سرنى فقد اتخذ عند الرحمن عهدا فلا تمسه النار إن الله لايخلف الميعاد » ، وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من جاء بالصلوات الخمس يوم القيامة قد حافظ على وضوئها ومواقيتها وركوعها وسجودها لم ينقص منها شيئا جاء وله عند الله عهد أن لايعذبه ، ومن جاء قد انتقص منها شيئا فليس له عند الله عهد ، إن شاء رحمه وإن شاء عذبه » .

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنْبَغِى لِلرَّحْمٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِى الرَّحْمٰنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) .

شرح المفردات

جئتم : أى فعلتم ، والإدّ (بالكسر والفتح) المنكر العظيم ، والإدة : الشدة يقال أدّنى الأمر وآدنى : أثقلنى وعظم علىّ ، والتفطر : التشقق ، وتخر : تسقط وتنهدم ، دعوا : أى نسبوا وأثبتوا ، قال شاعرهم :

إنا بنى نهشل لاندّعى لأب عنه ولا هو بالأبناء يشرينا

عبدا : أى منقادا خاضعا كما يفعل العبيد ، أحصاهم : عدهم وأحاط بهم ، وعدهم عدّا : أى عد أشخاصهم ، فردا : أى منفردا لاشىء معه من الأنصار والأتباع .

المعنى الجملى

بعد أن رد على عبدة الأوثان وأثبت بقاطع الأدلة أنهم فى ضلالهم يعمهون ، وأنهم عن الحق معرضون ـ أردف ذلك بالرد على من أثبت له الولد كاليهود الذين قالوا عزير ابن الله ، والنصارى الذين قالوا المسيح ابن الله ، والمشركون الذين قالوا الملائكة بنات الله ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

الإيضاح

(وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا إدّا .) أى وقال الكافرون بالله : إن للرحمن ولدا ، لقد جئتم أيها القائلون بمقالكم هذا شيئا منكرا عظيما يدل على الجرأة على الله وكمال القِحَة عليه سبحانه ، وإنه ليغضبه أشد الغضب ، ويسخطه أعظم السخط .

(تكاد السموات يتفطرن منه) أى إنه لعُظْمه تكاد السموات يتشققن منه لشدة هوله وعظم شأنه ، وكما لاينفع مع الشرك إحسان المشرك . نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين .

(وتنشق الأرض) أى تخسف بهم .

(وتخر الجبال هدّا) أى تسقط وتنهد هدا ، فتنطبق عليهم ، روى عن ابن عباس أنه قال : إن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين ، وكادت تزول منه لعظمة الله وكماله .

وقصارى ذلك — إن هول هذه الكلمة الشنعاء لو صوّر بصورة محسوسة لم تتحملها هذه الأجرام العظام ، وتفرقت أجزاؤها من شدتها .

وفى ذلك تنبيه إلى غضب الله تعالى على قائل هذه الكلمة ، وأنه لولا حلمه سبحانه لهلك .

ثم بين علة ذلك فقال :

(أن دعوا للرحمن ولدا) أى من أجل أنهم نسبوا لله اتخاذ الولد .

ثم نفى ذلك عن نفسه بقوله :

(وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا) أى وما يليق به اتخاذ الولد ، لأن ذلك يقتضى التجانس بينهما وأن يكون كل منهما حادثا ، ولأن الولد إنما يكون للسرور به، والاستعانة به حين الحاجة ، وللذكر الجميل ، إلى نحو أولئك من المقاصد التى يتنزه عنها ربنا جل وعلا .

ثم زاد الإنكار توكيدا فقال :

(إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا) أى ما من أحد من الملائكة والإنس والجن إلا وهو مملوك له سبحانه ، ينقاد لحكمه ، ويلتجئ إليه حين الحاجة ، ويخضع له خضوع العبد لسيده .

(لقد أحصاهم) أى لقد حصرهم وأحاط بهم ، فهم تحت أمره وتدبيره ، يعلم ما خفى من أحوالهم وما ظهر ، لايفوته شىء منها .

(وعدّهم عدا) أى وعد أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم وأقوالهم ، فكل شىء عنده بمقدار ، عالم الغيب والشهادة .

(وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) أى وكل امرئ منهم يأتيه يوم القيامة وحيدا منفردا عن الأهل والأنصار ، منقطعا إليه تعالى ، محتاجا إلى معونته ورحمته .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا (٩٦) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨) .

شرح المفردات

الود : المودة والمحبة ، بلسانك : أى بلغتك ، واللّدّ : واحدهم ألد ، وهو الشديد الخصومة ، وركزا : أى صوتا خفيا .

المعنى الجملى

بعد أن فصل سبحانه أحوال الكافرين فى الدنيا والآخرة ، وبالغ فى الرد عليهم - ختم السورة بذكر أحوال المؤمنين ، وبين أنه سبحانه سيغرس محبتهم فى قلوب عباده ، وبعد أن استقصى فى السورة دلائل التوحيد والنبوة والحشر وردّ فيها على فرق المبطلين - بين أنه يسر ذلك بلسان نبيه صلى الله عليه وسلم ليبشر به المتقين وينذر به قوما من المشركين ذوى الجدل والمماراة .

الإيضاح

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّا) أى إن الذين آمنوا بالله وصدّقوا برسله وبما جاءوهم به من عنده وعملوا به فأحلوا حلاله وحرموا حرامه ، سيجعل لهم الله محبة فى قلوب عباده المؤمنين .

أخرج البخارى ومسلم والترمذى فى جمع كثير عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أحب الله تعالى عبدا يقول لجبريل : إنى قد أحببت فلانا فأحبه ، فينادى فى السماء ، ثم تنزل له المحبة فى الأرض ، فذلك قول الله تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) الآية » .

وأخرج ابن مردويه والديلمى عن البَرَاء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى كرم الله وجهه : « قل اللهم اجعل لى عندك عهدا ، واجعل لى فى صدور المؤمنين ودا ، فأنزل الله سبحانه الآية » .

وكان هرم بن حيّان يقول : ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه ، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم .

وخلاصة ذلك — سيجعل الله للمؤمنين الذين يعملون الصالحات مودة فى القلوب يزرعها لهم من غير تودد منهم ، ولا تعرّض للأسباب التى يكتسب بها الناس مودات القلوب من قرابة أو صداقة أو اصطناع معروف .

وقد خصهم الله بهذه الكرامة كما قذف الرعب فى قلوب أعدائهم منهم إعظاما لهم و إجلالا لمكانهم .

ثم ذكر الحكمة فى إنزال القرآن بلغة العرب فقال :

(فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدّا) أى فإنما سهلنا نزول القرآن بلغتك العربية لتقرأه على الناس وتبشر به من اتقى عقاب الله ، فأدى فرائضه واجتنب نواهيه ، بأن له الجنة ، وتنذر به من عصاه من قريش ، وهم أهل اللدد والجدل بالهوى ممن لا يقبل حقا ، ولا يحيد عن باطل .

وقصارى ذلك — بلّغ هذا المنزّل و بشر به وأنذر ، فإنما أنزلناه بلسانك العربى المبين ، ليسهل على الناس فهمه .

ثم ختم السورة بتلك العظة البالغة فقال :

(وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ؟) أى وقد أهلكنا كثيرا من الأمم قبل هؤلاء المعاندين ، حين سلكوا فى خلافى مسلك هؤلاء ، وركبوا معاصى ، فهل تحس منهم أحدا فتراه وتعانيه أو تسمع له صوتا ؟ لا — إنهم بادوا وخلت منهم الديار ، وأقفرت المنازل ، وصاروا إلى دار لا ينفع فيها إلا صالح العمل ، و إن قومك لصائرون إلى مثل ما صاروا إليه ، إن لم يعاجلوا التوبة قبل الهلاك .

وفى هذا وعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالنصر والغلبة على هؤلاء المشركين ووعيد لأولئك الكافرين الجاحدين ، وحث له على التبشير والإنذار .

وقصارى ذلك — إنا أهلكناهم ، فلم نبق منهم أحدا تراه ولا تسمع له صوتا خفيا ولا ظاهرا .

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد سيد المرسلين .

خلاصة لما حوته السورة الكريمة من المقاصد

(١) دعاء زكريا ربه أن يهب له ولدا سريا مع ذكر الأسباب التى دعته إلى ذلك .

(٢) استجابة الله دعاءه و بشارته بولد يسمى يحيى لم يسم أحد من قبله بمثل اسمه .

(٣) تعجب زكريا من خلق ذلك الولد من أبوين : أمّ عاقر وأب شيخ هرم .

(٤) طلبه العلامة على أن امرأته حامل .

(٥) إيتاء يحيى النبوة والحكم صبيا .

(٦) ما حدث لمريم من اعتزالها لأهلها ، وتمثل جبريل لها بشرا سويا ، والتجائها إلى الله أن يدفع عنها شر هذا الرجل ، و إخباره لها أنه ملك لا بشر .

(٧) حملها بعيسى عليه السلام وانتباذها مكانا قصيا حتى لا يراها الناس وهى على تلك الحال .

(٨) نداء عيسى لها حين الولادة ، وأمرها بهزّ النخلة حتى تساقط عليها رطبا جنيا .

(٩) مجيئها بعيسى ومقابلتها لقومها وهى على تلك الحال وقد انهال عليها اللوم والتعنيف ، وأنها فعلت مالم يسبقها إليه أحد من تلك الأسرة الشريفة التى اشتهرت بالصلاح والتقوى .

(١٠) كلام عيسى وهو فى المهد تبرئة لأمه ووصفه نفسه بصفات الكمال من النبوة والبركة والبر بوالديه وأنه لم يكن جبارا متكبرا على خالقه .

(١١) اختلاف النصارى فى شأنه .

(١٢) قصص إبراهيم عليه السلام مع أبيه آزر ووصفه له بالجهل وعدم التأمل فى المعبودات التى يعبدها من دون الله ثم تحذيره إياه بسوء مغبة أعماله ، وردّ أبيه عليه مهددا متوعدا .

(١٣) هبة الله له إسحٰق ويعقوب ، وإيتاؤهما الحكم والنبوة .

(١٤) قصص موسى ومناجاته ربه فى الطور ، والامتنان عليه بجعل أخيه هرون وزيرا ونبيا .

(١٥) قصص إسماعيل ووصف الله له بصدق الوعد وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .

(١٦) قصص إدريس عليه السلام ووصف الله له بأنه صديق نبى رفيع القدر عظيم المنزلة عند ربه .

(١٧) مجىء خلْف من بعد هؤلاء الأنبياء أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات .

(١٨) وعد الله لمن تاب وآمن وعمل صالحا بجنات لا لغو فيها ولا تأثيم .

(١٩) إن جبريل لاينزل إلى الأنبياء إلا بإذن ربه .

(٢٠) إنكار المشركين للبعث استبعادا له ، ورد الله عليهم بأنه خلقهم من قبل ولم يكونوا شيئا .

(٢١) الإخبار بأن الله يحشر الكافرين يوم القيامة مع قرنائهم من الشياطين ثم يحضرهم حول جهنم جثيا ، ثم بدئه بمن هو أشد جُرما والله أعلم بهم .

(٢٢) الإخبار بأن جميع الخلق ترد على النار ثم ينجى الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيا .

(٢٣) بيان أن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن فخروا على المؤمنين بأنهم خير منهم مجلسا وأكرم منهم مكانا .

(٢٤) تهديدهم بأنه أهلك كثيرا ممن كان مثلهم فى العتو والاستكبار ، وأكثر أثاثا ورياشا .

(٢٥) بيان أن الله يمد للظالم ويمهله ، ليجترح من السيئات ما شاء ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر .

(٢٦) النعى على المشركين باتخاذ الشركاء ، وأنهم يوم القيامة سيكونون لهم أعداء .

(٢٧) نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن طلب تعجيل هلاك المشركين ، إذ أن حياتهم مهما طالت فهى محدودة معدودة .

(٢٨) التفرقة بين حشر المتقين إلى دار الكرامة ، وسوق المجرمين إلى دار الخزى والهوان .

(٢٩) النعى الشديد على من ادعى أن لله ولدا .

(٣٠) بيان أن الله قد أنزل كتابه بلسان عربى مبين ، ليبشر به المتقين ، وينذر به الكافرين ذوى اللدد والخصومة .